دروب مُغَادِرة

اســـم الكتـــاب: دروب مُغَـــــــــــــــــــادِرة

التـأليـــــــف: عائشـــة محمـــد هـــزاع الصـــيادي

الموضـــــــوع: روايـــــــــــــــــــــــــة

مراجعة وإخراج فني: عمـــــرو ســـــالم ســـــواح

رقـــم الإيـــداع: ٢٦٢٩٢ /٢٠١٩

التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-178-1

الناشر: دار زحمة كُتّاب بالتعاون مع دار بوك جارد للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

za7ma-kotab@hotmail.com Email

002 01205100596 Tel

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

دروب مُغَادِرة

رواية

عائشة الصيادي

(جميع أحداث الراوية دارت في مخيلة الكاتبة ولا ترمز لإي طرف

أو شخص بعينه حيث أنه قد تم كتابتها عام٢٠١٢)

إلى روحٍ وضِعتَ بدخلنا لنتَوهج دائمًا

(وطني)

إلى عنواني ابتَهاجي وفخري

(أبي،أمي)

ملخص الرواية

الرواية (دروب مُغَادِرة) للكاتبة عائشة الصيادي.

الرواية تعالج الموضوعات الاجتماعية التي تجسد واقع المجتمع اليمني وطبيعة العيش في المناطق البعيدة عن المدن الحضرية، تحكي الرواية قصة شخص متسلط ارتبط بعلاقة اجتماعية (مصاهرة) مع أحد رجال الدولة (المحافظ) واستطاع أن يستثمر هذه العلاقة في استقطاع بقعة من الجغرافيا التابعة لهذه المحافظة (العزلة) وفرض سلطته وجبروته عليها وإخضاع جميع سكان هذه العزلة لسلطانه، واستخدمهم لتحقيق طموحاته، وكيف اضطهدهم واستخدم القمع لكل من يحاول الخروج عن سلطانه، فعزل هذه المنطقة عن محيطها الاجتماعي والسياسي، فلا يسمح لأحد من أهلها بمغادرتها.. ولا يسمح لأحد غريب بالدخول إليها فكل سكانها يعملون تحت إمرته وفي خدمته، تم توزيعهم بحسب قدراتهم فمنهم من يعمل بالزراعة، وآخرون في رعي الماشية، وفريق ثالث في الخدمة والحراسة، النساء يعملن في الحقول وفي خدمة مركز

الحاكم وهو (الدار) القلعة التي يعيش فيها هذا الحاكم وأهله وحاشيته، وقد تخلل ذلك السرد أحداث متعددة تخدم غرض الرواية من زوايا متعددة.

وُجد الناس في هذه العزلة لا يعرفون شيئا عن الحياة سوى خدمة (صاحب الدار) والعمل من أجل لقمة العيش التي يحصلون عليها مقابل خدمتهم، وليس من حقهم أن يمتلكوا أي شيء فالأرض والمال والأنعام كلها ملك لهذا الحاكم.

تعرض الرواية جوانب العيش المختلفة لصاحب الدار وأهله، صورة الدار مكوناته، من يعيش فيه، تفاوت الطبقات داخله، أبناء صاحب الدار، تعلمهم، سلوكهم، وظيفة كل واحد منهم، موقفه من سياسة والده.. وكذلك تعرض أعوانه (نصر) وغيره.

كما تعرض الرواية طبيعة الحياة الاجتماعية داخل العزلة، ما هي مواقفهم تجاه سياسة (صاحب الدار).

كما تعرض الرواية طبيعة التفكير السائد في هذه البيئة ومصير بعض الأصوات المعارضة لصاحب الدار.

كما تعرض الكاتبة المظاهر الطبيعية والجغرافيا والتضاريس للقرى الواقعة في إطار العزلة وما يسود فيها من أساطير وخرافات (غابة رماح)، (جنية) – موظفة ذلك في خدمة الفكرة الأساسية التي تدور حولها وأحداث الرواية، وتنمو الأحداث بأسلوب سردي يعتمد الحبكة المفككة أحيانا في تنقل الكاتبة من وحدة إلى أخرى، وتبدأ الأحداث تتجه نحو النهاية حتى تصل إلى تغيير المحافظ فتتغير السياسة وتتبدل العلاقات.

يحرص (صاحب الدار) على كسب المحافظ الجديد واستمالته حتى يضمن بقاءه في العزلة، بالمكانة نفسها، غير أن الأحداث تأتي على غير رغباته فتنتهي الأحداث بالقضاء عليه وتحرير العزلة من ظلمه وبطشه، وتبدأ الحياة الجديدة تطغى على كل أرجاء العزلة وينتهي الظلم وتتحقق العدالة.

(عزلة ردهان)

هناك في العزلة القابعة خلف اللا مكان وبين أكثر زوايا العالم جهلًا، هي معزولة وبعيدة كل البعد عن تيار أحداث العالم. يمر بها الزمن مرور الكرام يخيم عليها الجهل والبؤس والمرض، تعزف في سمائها البوم والخفافيش الضالة مقطوعات حزن وألم لا ينتهي فتوزعها الرياح على كل الأزقة والشوارع.

يبلغ مساحتها ٥ كم٢ تبعد عن مركز المدينه (٢٠)كم٢ عزلة تنوعت فيها المناظر، قمم وذرى من جميع الأحجام والأشكال تبرز في السماء الزرقاء، ووديان عميقة خضراء مشرقة تضم حقول القمح وحقول الذرة بأنواعها البيضاء والحمراء والذرة الشامية و(الدخن)[١] و(الغرِب)[٢]، وكذلك الفاصولياء، وبساتين الفاكهة وحقول القات ومزارع الخضراوات، والعنب وأشجار التين الشوكي، ومراعي خصبة جوها ماطر بشكل منتظم وفي كل الفصول، طقسها رائع وممتع، تحيط بها السلاسل الجبلية من جميع الجهات، مرتفعة عدا مساحة انخفاض صغيرة من جهة الجنوب وكذلك من جهة الشرق، فمنخفض السلاسل الجنوبي يمر فيه طريق يؤدي إلى المدينة، وهو عبارة عن ممرات في السلاسل الجبلية المنخفضة، وهي ممرات خانقة كسراديب المدن القديمة، والمنخفض الشرقي يمثل طريقًا وعرًا يؤدي إلى خلف الجبل، وهي طريق ضيقة جدًّا لا تمر منها السيارات وبالكاد يعبرونها

---

١ الدخن : بضم الدال شكله يشبه القطرة لونه بني مائل إلى السواد صغير الحجم جدًّا.

٢ الغرب :حجمه بحجم الذرة لونه أحمر .

المشاة، وكان لا يسمح بالمرور منها سوى لأهل القرى الواقعة خلف الجبل الذين يمكنهم استخدامها إذا أرادوا القدوم إلى العزلة، ومن جهة الشمال هناك جبلان شاهقان متقاربان ومتماسكان يتوسطهما جبل أصغر منهما بقليل هو جبل (إبراهيم) يتصل بالجبلين من الخلف ومن الأمام، تبرز مقدمته نحو عمق العزلة كانت نهاية منحدراته تصل إلى وسط قرية (نجد)، هناك ثلاث قرى متقاربة المسافة (نجد)، (خرابة)، (دلة)، وقرى أخرى متفرقة.

(أهالي العزلة)

كانت هذه العزلة ترزح تحت وطأة الفقر والجهل، منازلها عبارة عن أكواخ مبنية من الطين مهترئة، المواطنون فيها بسطاء يعيشون على سجاياهم، وجوههم شاحبة تعلوها لون صفرة باهتة ومقيتة، أجسادهم سمراء ناحلة، وُزع أهالي العزلة توزيعًا محكمًا؛ فكبار السن من الرجال والنساء قد أُعفوا من العمل، وأما متوسطي متوسطو الأعمار فالنساء يقمن بأعمال كاملة من تنظيف وترتيب وطبخ، أزواجهن يعملون في مزارع الفاكهة والخضروات وحقول القمح، وأيضًا حقول القات، الشبان عليهم جمع صناديق الفاكهة الناضجة تمامًا لوحدها، الفاكهة متوسطة النضج في مكان لوحدها ووضع مسافة كافية بين الصناديق، الشابات هن من يقمن برعي الأغنام والخراف وسائر الماشية، وجلب الحشائش للحمير التي تجلب الماء لصغار الأغنام والأبقار التي لم تقوَ على الذهاب إلى المرعى بعد، وأيضًا الثيران

المربوطة في أحواشها التي لا تخرج إلا عند حرث الأرض..، ثم يتم ربطها بعد ذلك؛ لأنها إذا ما خرجت تركض وتنطح وترفس كل شيء في طريقها.

وعلى الشابات أن يحلبن الأبقار والأغنام وكذلك الخراف في الصباح، وبعد العودة من المرعى مساءً، ووضع ذلك الحليب في إناء ليتم في الصباح تعليقه وربطه في خشبة خصصت لذلك، وهزّه ذهابًا وإيابًا حتى تبدأ(الدُهْنَة)[٣] بالتكون يضاف إليه القليل من الملح حينها يكون الحليب قد تحول إلى لبن خالص رائع المذاق.. يتم تناوله وشربه، أما الدهنة فيتم أخذها ووضعها في إناء معدني وتجميعها حتى تكثر، ثم يتم وضعها على النار مع قليل من الملح فتتحول إلى سمن بلدي له نكهة لا توصف.. يتم استخدامه في الطبخ، وغالبًا من يتولى عمل السمن البلدي وتحضيره هن النساء كبار السن فإنهن يحضّرنه بطريقتهن الخاصة ويضعن عليه لمساتهن السحرية التي تجعله لذيذ المذاق وشهيا.

أما الأطفال فمنهم من يعتني بإخوته الصغار في أكواخهم، ومنهم من يجلب الماء على ظهور الحمير من الآبار البعيدة، وعلى كل واحد منهم أن يقوم بعمله على أكمل وجه دون تقصير.. ينطلقون إلى أعمالهم مع بزوغ الفجر ويعودون عند غروب الشمس.. يتناولون وجبة العشاء ويخلدون للنوم بعد يومٍ شاق ومتعب، أتعبهم الروتين اليومي.. يعيشون ليالي الضياع المرّ لقد ضاعوا في دهاليزها منذُ زمن...

---

[٣] قطع صفراء دهنية يتم تجميعها وتعد زبدة الحليب.

(الدار)

تلة لها مساحة كبيرة تتوسط ثلاث قرى (نجد) (دلة) (خرابة) أعلى تلك التلة هنالك سور ضخم شديد الارتفاع، محكم البناء، أحجاره ضخمة سوداء ترى إلى مسافات بعيدة جدًّا.

لذلك السور بوابة خشبية نحتت عليها نقوش جميلة وأشكال هندسية مختلفة مطلية بألوان زاهية وبراقة، يقف أمام تلك البوابة الشاهقة حارسان طويلا القامة كثيفا الحاجبين واسعا العينين، أفطسا الأنف وعريضا الجبهة، لهما بشرة سوداء يتشابهان إلى حد كبير جدًّا.. شكلهما ينطق بالغباء يقومان بفتح البوابة وغلقها عند الحاجة.

وينتشر خارج ذلك السور وداخله الكثير من الحرس الذين يحملون على ظهورهم البنادق.. لقد كانوا يتناوبون في الحراسة ليلًا ونهارًا، وداخل ذلك السور مبنى كبير جدًّا رائع المنظر بني بطريقة هندسية متقنة، أحجاره حمراء جُلبت من الجبل، له شُرف مطلة على القرى ونوافذ على شكل عقود خشبية ذات لون بني مرصعة بنجمات فضية ومصارع ذات لون ذهبي لامع.. رُصت على تلك النوافذ أواني فخارية مليئة بالماء البارد النقي، تنبعث من تلك النوافذ روائح البخور الفاخر، وفي الاتجاه الخلفي لذلك المبنى توجد حديقة وارفة غناء فيها أزهار وورودٌ ذات ألوان مختلفة متنوعة الأشكال والألوان.. هذا زهر أبيض ناصع البياض، وذاك أصفر خالص الصفرة، وهذا أزرق صافي الزرقة، وذاك أحمر قانٍ.. وهناك في الزاوية نخلة باسقة وتنتشر فيها نباتات عطرية تفوح منها روائح زكية. تملؤها زقزقة العصافير المتنقلة في أرجائها.

وفي داخل السور من الجهة الشمالية ومحاذاة لذلك السور العالي بنيت خزانات كبيرة خاصة لتخزين الماء الذي يستهلكه كل من في القصر من حراس ومرافقين، وعلى الرغم من كبر حجمها وكثرتها فإنها كانت تستهلك بشكل سريع، كان على أطفال القرى ملؤها بالماء على ظهور حميرهم كل صباح حتى إذا ما امتلأت عادوا إلى أكواخهم، وجلب الماء لأهلهم، وفي صباح اليوم التالي تكون تلك الخزانات قد فرغت بشكل كامل وعليهم ملؤها كل يوم.

يتكون هذا المبنى الضخم من أربعة طوابق فسيحة واسعة بالإضافة إلى طابق أرضي مقفل له باب واحد فقط لا يعلم أحد ما إذا كان أصحاب المبنى فتحوه أم لا، كان يدعى ذلك المبنى الضخم بـ(الدار) وكان يلقب صاحبه بـ(صاحب الدار) وهو أيضًا حاكم العزلة، كانت طوابق الدار موزعة.. الطابق الأول مغلق، والطابق الثاني فيه حجرات كثيرة وواسعة وديوان واسع تم فرشه بالأثاث الفاخر ذي اللون البني الداكن خُصص هذا الطابق للحرس والخدم والحشم والمرافقين، أما الطابق الثالث فهو لأولاد صاحب الدار وأمهم وزوجاتهم، كان لون أثاثه وكل محتوياته أحمر فاتحًا، وخُصص الطابق الرابع للضيوف وزوار (الدار) من أصحاب المناصب الكبيرة وأثاثه فاخر ذو لون أحمر مائل إلى السواد، أما الطابق الخامس لم يكن فيه ممرات أو حجرات إنما هو عبارة عن غرفة واحدة متسعة تسمى (المنظرة) خصصت للمقيل وتناول الوجبات مع الضيوف واجتماعات صاحب الدار مع أصدقائه من حكام العزل المجاورة وقد تميزت بنوافذها الكبيرة الواسعة وستائرها البنفسجية المرصعة بالكريستال الأبيض والأسود وسجادها البنفسجي ذات

ذي المربعات السوداء الناعمة.. وإلى جانب تلك (المنظرة) هناك شرفة خضراء كبيرة فيها مقاعد مصفوفة للجلوس.

الطابق الثالث الخاص بصاحبة الدار وزوجات أبنائها ممتلئ بخادمات تم اختيارهن بطريقة ذكية وماكرة، حيث إنهن قبيحات المنظر وذات هيئة غير مرغوب فيها، وذلك حتى لا يقع أحد الأبناء في حب إحداهن ويلحق بهم العار، عدا واحدة منهن كانت صغيرة السن.. جميلة كانت صاحبة نَفَس رائع في الطبخ لها طرق خاصة في إعداد الطعام، وأيضًا في ترتيب غرفة (صاحبة الدار) كانت تتفنن في كل شيء، وكانت كتومًا جدًّا، وكانت صاحبة الدار ترتاح لها فتخبرها بكل أسرارها، كانت هذه الخادمة تدعى نبأ، أما خدمة الطابق الرابع فكانت خدمة لها خصوصيتها وأهميتها كونها تخص الضيوف..

وخدمة الطابق الثاني مثل ساكنيه -فالخدم هنا غير مهتمين وفاشلين بعض الشيء- قليل النظافة سيء الترتيب.

في الطوابق الثلاثة يوجد هناك مسؤول عن هؤلاء الطباخين يشرف عليهم ويخبرهم بكمية الطعام الذي سيتم طهيه إذا ما كان هناك ضيوف وعددهم وأصناف الطعام التي ستجهز لهم.

كما أن مسؤول الطباخين للطابقين الثالث والرابع عليهم تذوق الطعام قبل تقديمه لأهل هؤلاء الطوابق والانتباه إلى منظره ورائحته وإذا ما كان ينقصه شيء من ملح أو غيره.

أما الطابق الثاني فيطبخ الطعام ويُقدم ولا يُسمح بتقديم الشكاوى حول نوعية الطعام وطعمه أو غير ذلك.

(الجهة الشمالية)

أسفل منحدر تلك التلة التي أعلاها الدار يوجد مسجد كبير يسكنه رجل طاعن في السن هو إمام ذلك المسجد وخطيبه، مسجد الدار الذي يجتمع فيه أهل القرى المجاورة للصلاة، ويتم فيه تدريس الأطفال القرآن الكريم، كان يتولى تدريسهم إمام المسجد ذو اللحية البيضاء والقامة الطويلة وصاحب وجه يشع منه نور الهداية، ولسانه يلهج بالدعاء والاستغفار وعيناه التي تنطق بألّا حول ولا قوة له ذلك هو الحاج أحمد إمام الجامع.

(الجهة الجنوبية)

أسفل منحدر التلة من جهة الجنوب هناك حُجرة كبيرة واسعة بنيت من الأحجار بداخلها وعاء صخري كبير بداخله خشبة كبيرة مربوطة بحبل إلى عنق جمل مربوط العينين يحرك تلك الخشبة ويدور بها على ذلك الوعاء الصخري يوضع بداخله الحبوب وفي أثناء دوران الجمل يتم طحنها، يستمر الجمل بالدوران حتى يتم التأكد من أن الحبوب قد تحولت إلى دقيق ناعم جدًّا جاهز للعجن والطهي، أسفل ذلك الوعاء الصخري فتحة صغيرة يخرج الدقيق منها، كانت عملية الطحن تشمل القمح والبن وكانت الكمية المطحونة أغلبها للدار، أما أهالي القرى فكانت كمية القمح التي يطحنها لهم ذلك الجمل قليلة جدًّا وهي الكمية التي يحصلون عليها مقابل عملهم.

(صاحب الدار)

اسمه مصطفى رجل قصير القامة ممتلئ الجسم عيناه جاحظتان له بشرة سمراء وله لحية مصبوغة بالحناء.. حاد الطباع يحمل في عينيه بريقًا من الخبث والمكر والحيلة هو كالخفاش يعشق الليل.. ويكره الآفاق المعمورة بالنور؛ لذلك كرس نفسه ونظام حكمه للمحافظة على حالة الجمود والثبات القاتل، كان قليل الكلام عميق التفكير.. توفي والده في ظروف غامضة كان في سن العشرين.. فتولى الحكم بعد والده وأصبح حاكم العزلة الجديد فكان حاكمًا طائشًا ونزقًا.. يضرب ويقتل من يشاء ويعفو عمن يشاء وفق مزاجية حادة، يصدر أوامره الظالمة في لحظات طيشه وغضبه التي تتفجر دائمًا وقلما تهدأ.

أمه لا تزال حية، كبيرة في السن ضعف نظرها وخفت حركتها كانت تزورها ذاكرتها كالأعياد وتغيب كسائر الأيام، زوجة والده في سن الثامنة عشر عامًا كان وحيد والديه، لقد تزوج بابنة محافظ المحافظة التي تتبعها العزلة وقد كان ذلك الزواج وسيلة لتوطيد العلاقة وتوسيع نطاق المكاسب بين حاكم العزلة ومحافظ المحافظة.

كان عمر ابنة المحافظ وقتئذ الخامسة عشرة، كانت جميلة وهادئة ذات شعر أحمر ذي حلقات وعينين صغيرتين قصيرة القامة..، ذات بشرة بيضاء وأصابع قصيرة وممتلئة مخضبة بالحناء قليلة الكلام والابتسام تمتلك عقلا أكبر من سنها رزينة وفطنة.

أنجبت له ستة أولاد (فاروق) و(عاصم) و(شاكر) و(هلال) و(فياض) و(عمر) كانت والدتهم تذهب إلى بيت والدها في المدينة، وتلد هناك.. نموا وترعرعوا في المدينة ويلتحقون بالمدرسة ثم يعودون إلى العزلة ليتولوا منصبًا، كان أبناء صاحب الدار هم الوحيدون في العزلة المتعلمون وذلك لأنهم تعلموا في المدينة.

أما العزلة فلا يوجد بها مدارس ولا يسمح لأحد بالخروج من العزلة للدراسة أو لأي غرض آخر، هناك على حدود العزلة حرس عينوا من قبل (صاحب الدار)، مهمتهم منع أي أحد يريد الخروج من العزلة عدا أفراد معروفين، منهم أبناء (صاحب الدار) بسيارتهم وقد تفردوا بامتلاكها كما تفردوا بالتعليم، ومنهم تجار معرفون من قبل (صاحب الدار) يأتون بشاحناتهم لملئها من خيرات العزلة، ثم يعودون بها إلى المدينة يسمح لهم بدخول العزلة مرة واحدة آخر الشهر وقد التزموا بذلك؛ حيث أن التعليمات والقوانين كانت صارمة وما عليهم سوى القبول بها نزولًا عند أوامر (صاحب الدار).

وهناك من يدخل العزلة ويخرج منها وما على الحراس إلا الترحيب والابتسام لهم، وهم حكام العزل المجاورة أو تجارٌ مشهورون أو المحافظ أو مندوب من قبله.

كان الحكم على العزلة حكمًا استبداديًّا عانت منه كل القرى الموجودة في هذه العزلة من الظلم والاضطهاد والبطش وفداحة الضرائب، كانت الطبقة الحاكمة منهمكة في تحقيق أكبر قدر من المكاسب، كان المواطنون يمشون وفق أوامر (صاحب الدار) ومن خالفها ناله الذل والإهانة ويرمى به في

السجن المؤبد؛ لذلك عليهم الرضوخ تحت إمرة الحاكم، هناك الكثير من المواطنين حاولوا الوقوف ضد (صاحب الدار) غير أن عملية القمع تأتي سريعًا فيقتلون في ظروف غامضة فيكونون عبرةً وأصبح البقية أعظم منكوبين في التاريخ قُيدت حياتهم وتبددت طاقتهم وتَنغص عَيشهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. فما كان عليهم سوى العيش الرخيص والاستسلام وتنفيذ الأوامر بأفواه مقفلة.

مضت أربع سنين حتى أزيح والد زوجة (صاحب الدار) من منصبه، وتم تعيين آخر فما كان من (صاحب الدار) إلا دعوته لتناول الغداء في (الدار) وذلك لتهنئته واحتفالًا بمنصبه الجديد وإيصال فكرة أن تظل العزلة بعيدة عن أنظار التطور فأقام له وليمة كبيرة شملت سفرة طويلة ومتنوعة الأطعمة واللحوم وشتى أصناف الفواكه والخضروات وتم استقباله بابتسامة عريضة وترحيب حار، وأسرف(صاحب الدار) في مدح المحافظ الجديد والثناء عليه، وبعد وجبة الغداء تلك تم الاتفاق على إخفاء العزلة.

(أبناء صاحب الدار)

- فاروق الولد الأكبر لصاحب الدار هو في السابعة والثلاثين من عمره طويل القامة نحيل الجسم له وجه شاحب وبشرة سوداء وصلعة صغيرة تزحف بهدوء لتسيطر على الرأس وتقضي على ما تبقى من سواده، عيناه زرقاوان وشاربه أسود كثيف ملتوٍ، هادئ ورث من والده قدرًا كبيرًا من المكر والحيلة كان ذكيًّا ومحنكًا، أنهى تعليمه الثانوي والتحق بالجامعة وحصل على

شهادة البكالوريوس في الشريعة والقانون فكان لبقًا ذا لسان جيدٍ بارعٍ في الحديث كان لديه ميول كبير للسياسة، أنهى تعليمه الجامعي وعاد إلى الدار ثم عاد إلى المدينة، وهناك كان يقوم بمتابعة الأحداث الجارية وأخبار العالم عامة والدولة بشكل خاص، وكذلك أخبار مسؤولي الدولة، وكل ما يحدث من تطورات وإخبار والده بكل جديد وأيضًا علاقته جيدة مع مسؤولي المحافظة على رأسهم المحافظ، لقد كان طموحه نَيل أحد هذه المناصب، هو متزوج وله أربع فتيات.

- (شاكر) صاحب الخامسة والثلاثين، الولد الثاني (لصاحب الدار) طويل القامة مهيب الطلعة ذو وجه جميل ترتسم عليه سمات الجِد والكبرياء له ابتسامة صفراء لا تفارقه كان محبوب والده، له ذوق في انتقاء ملابسه وحلله الثمينة التي يأتي بها من المدينة، شعره أسود قاتم له طريقته العصرية في تمشيطه. لم يدرس سوى أربع سنوات لم يكمل تعليمه، فهو مدلل والديه كان متحدثًا لبقًا وله لسان معسول.. كانت مهمته هي استقبال ضيوف (الدار) والترحيب بهم والاعتناء بهم منذ وصولهم حتى مغادرتهم، أيضًا يقوم بأخذ هدايا والده إلى أصدقاء من كبار العزل المجاورة ودعوتهم لزيارة والده، والنزول ضيوفًا كرامًا لديهم، كان جيدًا في كتابة الرسائل والدعوات إلى أصدقاء والده، متزوج ولديه توأم.

- (هلال) صاحب الثانية والثلاثين الولد الثالث

صاحب العمامة السوداء التي لا تفارق رأسه، وفمه لا يخلو من القات سواء في أوقات الوجبات وأحيانًا يستغني عن الوجبات ويكتفي بالقات، شفتاه تحمل تلك السيجارة باهظة الثمن سريعة الانتهاء، كان مشرفًا على حقول القات ومهتمًّا بها اهتمامًا كبيرًا، فكان يحضر المبيدات والسموم والأسمدة من المدينة ويرشها على القات فتزداد دفعات البيع في فترات متقاربة وسريعة، لقد كان يعتني بالقات منذ بزوغه حتى موعد قطفه، وقد خصص وقت القطف الفجر والتوجه به إلى المدينة ليصلها باكرًا، وهو على نضارته ويتم تسليمه إلى أفراد في المدينة يوزعونه في المحافظات المجاورة بطرقهم الخاصة، يتسلم منهم الأموال ويعود إلى العزلة، متزوج له ولد واحد فقط.

- (عمر) صاحب التاسعة والعشرين الولد الرابع لصاحب الدار قصير القامة ممتلئ الجسم ذو بشرة بيضاء وشعر أشقر وعينان تميلان إلى الزرقة، نظرته يملؤها الغرور وحب النفس، ولدته أمه في المدينة وعاش طفولته فيها، وتعلم كذلك كان معدله في الثانوية مرتفعًا حينها كتب إلى والده رسالة طالبًا فيها السماح له بالذهاب إلى الخارج للدراسة، كان شغوفًا ومحبًّا للدراسة ومحبًّا أيضًا للسفر والتنقل، كان والده رافضًا لفكرة السفر هذه، إلا أنه ظل يكتب له ويسرد له أسبابًا مقنعة لذلك السفر حتى وافق الوالد أخيرًا وسافر وقتها إلى إحدى الدول الخارجية ودرس الطب فيها وقد كانت رسائله التي لا تنقطع توحي بأنه سيستقر هناك إذا ما انتهى من دراسته، فإنه سيزاول مهنته

هناك ومؤخرًا أخبرهم في رسالته أن سوف يتزوج قريبًا من فتاة هناك في تلك الدولة حينها عرفوا أنه ينوي الاستقرار حقًّا.

- (عاصم) صاحب السابعة والعشرين هو الولد الخامس، أنهى تعليمه الثانوي وعاد إلى العزلة، ولم يكمل التعليم الجامعي، كان يكره الدراسة كثيرًا. قصير القامة له جثة ضخمة، أكول صافي السريرة، نادر الغضب، له حواجب كثيفة وعينان صغيرتان ذواتا لون عسلي، له شعر مجعد طويل يتدلى حتى أسفل رقبته عريض الوجه، واسع الفم تولى مهمة الإشراف على جني الثمار، وكذلك الإشراف على تخزينها وإدارة أفراد الحراسة لتلك المخازن حتى يتم تسليمها للتجار، كان عليه تفقد كل مزارع الفواكه والخضروات في جميع القرى التي في العزلة، وما إذا كانت الفواكه فيها ناضجة جاهزة للبيع أم لا، متزوج وله بنتان.

- (فياض) صاحب الخامسة والعشرين، الولد السادس طويل القامة ممتلئ الجسم له عينان عسليتان واسعتان، ووجه أسمر ولحية جديدة البزوغ وشارب، حديثه هادئ ذو أخلاق عالية بسيطٌ لا يظهر عليه ذلك الترف الذي يميز أبناء الدار. أنهى تعليمه الجامعي وكان تخصصه بيطري حيوانات، كان يتشاجر مع والده كثيرًا، كان يدافع عن المواطنين ويطلب حقوقهم ويساعدهم، كان يذهب إلى والده طالبًا منه مراجعة الأمور المتعلقة بأهل القرى، وبأن القوت المخصص لهم لا يكفيهم فهو يقل يومًا بعد يوم وهم من يعملون في الحقول ولا يستطيعون أخذ قوتهم منها حتى وأن لهم الحق في

ممتلكاتهم ولا يجوز أخذها منهم، كان والده يصرخ ويغضب ويثور إذا ما تكلم أحدهم عن المواطنين وحقوقهم، فكان يكره "فياض" بسبب تصرفاته تلك ويغضب منه ويصفه بضعيف الإرادة، أعماله تلك جعلته عرضة للشك والمراقبة إلا أنه لم يتوقف عن مساعدة المواطنين، لقد كان يحنو على أولئك المواطنين الضعفاء، كانت أعين والده تراقبه في كل خطوة يخطوها، كانت وظيفته هي جمع المواشي من القرى من أغنام وخراف وأبقار التي أصبح سنها ملائما للذبح جاهزًا للبيع فيخصص منها ما يذهب به إلى الدار ويتم ذبحه وطبخه لمن في الدار ويذهب بالبقية إلى المدينة، ويتم بيعها هناك كانت تجمع الحيوانات التي سوف يتم بيعها حتى نهاية الأسبوع ويتم تسويقها، لقد كانت وظيفته هذه مدروسة جيدًا من قبل والده، وأيضًا تولي أمر الحبوب يتم حصادها نهاية كل عام وأخذها إلى التلة الصخرية ووضعها في (المدافن)[٤] المخصصة لها.

وكانوا ينزلون إلى داخل تلك (المدافن) بسلالم خشبية ويقومون بتنظيفها، كذلك قبل ملئها بالحبوب عليهم فتحها وتهويتها لمدة شهر ومن ثم ملؤها بالحبوب وغلقها جيدًا لكي لا تفسد تلك الحبوب كانت تفتح الخزانات ويستخرج منها حبوب السنة الماضية ووضعها في أشولة وأكياس وإرسالها إلى

---

٤ تصرف كانت هذه (المدافن) أرضية حفرت في تلك التلة الصخرية وهي عميقة جدًّا كانت تلك الخزانات كأنها غرف مربعة إلا أن لها بابا واحدا وهو صغير من أعلى يكفي لدخول فرد واحد.

المدينة وبيعها ليعود مردودها بالمال الوفير لصاحب الدار، كانت التلة الصخرية مكانًا جيدًا لتخزين الحبوب فمكانها أعلى التلة بعيدًا عن طريق السيول الجارفة وكذلك بعيدة عن الرطوبة وعن طريق الناس، لكي لا يقع المواطنون في تلك الخزانات كانت تلك التلة محاطة بحراس قد بنيت لهم أكواخ محيطة بالتلة من جميع الجهات يتوزعون فيها.

تلة القمح تلك يفصلها عن الدار (قرية نجد). وفياض لم يتزوج بعد كانت أمه تسعى جاهدة لتزويجه من إحدى الفتيات من أقاربها في المدينة لكنه كان رافضًا ولم يفكر في الزواج حينها، كانت والدتهم تذهب إلى المدينة في وقت مبكر من حملها وتلد هناك وتم تسميتهم من قبل والدها.

كان لأولاد (صاحب الدار) طابق خاص بهم إلا أنهم نادرًا ما كانوا يلتقون، فأحدهم في المدينة وآخر مسافر وهذا عليه أن ينتظر حتى يسلم للتجار بضائعهم إلى منتصف الليل وذلك عليه مغادرة الدار فجرًا لقطف القات إلى المدينة وذاك ذاهب لتفقد المواشي وما سيأتي به إلى الدار وما يتم إرساله إلى سوق المدينة يخرج باكرًا ليعود مساءً، وذاك المتملق رطب اللسان أغلب الأيام يحل ضيفًا عند حُكام العزل المجاورة يكون قد حمل لهم رسالة أو هدية من والده فوصل وجلس هناك كذلك والدهم لم يكونوا يلتقون به أيضًا إلا حين يرسل في طلبهم فهو من الصباح يصعد من طابقه الخاص ليجلس في المقاعد الموجودة في الشرفة المجاورة. (المنظرة) حتى يحس بحرارة الشمس ويدخل ليجلس داخل (المنظرة) بزاويته المخصصة ينتظر أخبار العزلة والعالم التي يأتي بها مساعده الخاص ولا ينزل من (المنظرة) إلا في وقت متأخر من الليل.

(نصر)

كان على جميع أبناء صاحب الدار الموجودين في العزلة اختيار مرافقين لهم يرتاحون لهم يقدمون لهم المشورة ويتكفلون بحراستهم وجميع أمورهم، كان (نصر) في الأربعين من عمره هو رجل طويل القامة بارز تقاطيع الوجه عيناه سوداوان قاتمتان ينبعث منهما الغضب دائمًا له فم ينطق بالإرادة، والقوة، وأنف بارز، جثته ضخمة وبشرته سوداء جاف الطباع واشٍ كذاب، كان هو مرافق (صاحب الدار) ومن يقوم بحراسته وتقديم المشورة له فهو مستشاره الواشي، كان مقربًا إليه جدًّا ولعل ذلك لتشابههما في الطباع والأخلاق، كان (نصر) نائب الدار ومن يهتم بشؤونها إلى جانب الحراسة لصاحب الدار، وتولي شؤون الدار كان يتولى أيضًا جمع المبالغ المالية ومراجعتها وأخذ جزءٍ منها إلى البنك ويذهب بالجزء الآخر إلى خزنة الدار وتوزيعها على ما يلزم الدار ومن فيه، وذلك بحضور (صاحب الدار) وأيضًا كانت له مهمة إضافية هي أن عليه مراقبة التجار الداخلين إلى العزلة لجلب السلع والسماح لهم بإدخال مواد معينة هي الملح والسكر وبعض الملابس، وقليل من الأحذية، وأما الأرز فهو يصل إلى الدار أما المواطنون فلا يعرفونه، وبقية السلع تُوزع على القرى وبكميات ضئيلة وأحيانًا قد تنقطع وكان فالحًا ناجحًا في هذه المهمة، كانت العزلة تكتفي من ناحية المواد الأخرى فهي أرض خصبة وجنة خضراء.

كان هناك شخص اسمه (مغوار) كان معروفًا في قريته أنه ضعيف العقل، إنه رجل يبدو ظريفا يحمل شيئًا من التفاهة ولا يتمتع بأي حيوية رث

الملابس لا يقدر على عمل أي شيء، ذلك لأن يديه صغيرتا الحجم لعيب خلقي من صغره، كان "مغوار" يلتقي (بنصر) خفية وبعيدًا عن الأنظار، لقد كان داهية وليس ضعيف العقل، كما يبدو للناس، كان يمكث في كوخه حتى يرسل (نصر) في طلبه فيلتقيان في مكان خُصِّصَ للقاءاتهما السرية، حيث كان يكلفه (نصر) بمراقبة أبناء (صاحب الدار) أو أحد المواطنين، وجلب أخبار القرى ومعرفة إذا ما كان هناك أحد كارهٌ لصاحب الدار وأعوانه وإخوانه أو نافرٌ من حكمهم ليتم تصفيته من قبل (مغوار) نفسه.. وكان (لمغوار) ولد يدعى (هارون) يعمل في الدار، وهو مسؤول عن حاجيات الخدم في الدار كاملة، عليه الاهتمام بتوفير ملابسهم الخاصة وإحضارها من المدينة وانتقاء ألوانها، وكان زي الخدم يختلف من طابق إلى آخر فاللون الأسود والبني خاص بخدم طابق الحرس والجند، أما اللون الأصفر الوردي فهو لخدم طابق (صاحب الدار) ونساء أبنائه وأما اللون الأبيض الناصع فهو لخدم طابق الضيوف وخدم (المنظرة).

كما كان يتولى (هارون) عمل تفقد أضواء الدار.. تلك الفوانيس داخل الدار وخارجها والنظر ما إذا قد صدئت أو خلص زيتها أو تعطلت أو علاها الغبار، أو قصرت وانتهت فتائلها القطنية أو خفت ضوؤها ويأمر الخدم بإصلاح كل تلك المشاكل والأعطال وأمرهم بإشعالها عندما يحل الظلام وإطفائها عند شروق الشمس.

كان (هارون) رسول (نصر) إلى والده، وهو الوحيد الذي يعرف بمهمة والده السرية ولا يجرؤ على البوح أو الإفشاء بشيءٍ عنها.

(جبل إبراهيم)

هو جبل ذو قمة رائعة الشكل، وتعلوه مساحة خصبة تمتد لتنتهي بهاوية جبل (إلياس) من جهة الشرق، وهاوية جبل (رماح) من جهة الغرب كان هذان الجبلان يسندانه من الخلف، كانت أطراف (جبل إبراهيم) المترامية تنتهي في وسط قرية (نجد) كان هناك عدة كهوف كبيرة وصغيرة تتوزع بداخل هذين الجبلين ويمكن المرور إليها من سطح جبل (إبراهيم) كانت هذه الكهوف منها يابسة ومنها ما يتقطر منه الماء ولم ينقطع أهالي العزلة من الإقامة في هذه الكهوف في فترة من الفترات عندما كان العيش في الوادي شبه مستحيل، فقد كانت الكوارث الطبيعية تنهال عليهم من كل جانب، فالأمطار الغزيرة تتجمع سيولها لتجرف كل شيء وأحيانًا الهزات الأرضية لتضرب العزلة من فترة إلى أخرى، وما كان عليهم سوى اللجوء إلى هذه الكهوف فقد كانت ملجأ آمنًا لهم بالفعل فتلك الهزات لا يحسون بها في الكهوف، والسيول يستحيل أن تصل إليهم، وبعدما تهدأ الطبيعة من بعد غضبها يبدأ الناس تدريجيًّا يعودون إلى الوادي ويتركون الجبل والكهوف ويستقرون أخيرًا في الوادي وقد كانت الطبيعة بعد ذلك رحيمة بهم، فقد نزل جميع الناس من أعلى الجبل ولم يبقَ سوى أسرة واحدة تتكون من أب مريض منذ سنوات، له وجه شاحب مصفر وجسم يرتجف لا يتوقف، كان يتحرك بصعوبة شديدة، كان الوالد راغبًا محبًّا للعيش بأعلى الجبل، وكانت زوجته تخدمه وتهتم به كان له ولدان فقط هما (عبد الله) صاحب العشرين سنة و(فارس) صاحب الرابعة عشر، كان عليهما النزول من الجبل كل صباح للعمل في الوادي والعودة معًا قبل مغيب

الشمس، مضت أيام قلائل حتى توفي والدهما؛ فأخفق سيرهما وتشتت جهدهما، وخارت قواهما وكسر جناحهما، لقد كان كل شيء بالنسبة لهما أما الزوجة فقد شق الدمع الحار طريقه على خديها وعلى ملامحها تتجلى الكآبة ويرتسم الأسى.

تم دفنه على سطح جبل (إبراهيم) هناك حيث يعيشون، لقد كانت هذه رغبته، وبعدها قرر الأبناء النزول من الجبل، لكن أمهم رفضت فكرة النزول فهي لا تستطيع مفارقه جوار زوجها، لقد أصبحت متمسكة بالعيش والبقاء في الجبل أكثر من ذي قبل كان على ابنيها احترام رغبتها تلك وتقدير قرارها فقررا البقاء في الجبل.

(سيف)

(سيف) رجل صاحب مشورة ورأي وخبرة تبدو عليه ملامح الرضا والقناعة هو من طبقة فقيرة في عزلة (ردهان) يبلغ الرابعة والعشرين هو صديقٌ مقربٌ من (فياض) منذ الطفولة على الرغم من الفارق الطبقي بينهما كون (فياض) ولد (صاحب الدار) حاكم العزلة و(سيف) ابن أحد المواطنين الفقراء في العزلة، كان (سيف) طفلًا يجلب الماء إلى خزانات الدار في حين أن (فياض) كان يأتي من المدينة ليقضي العطلة الصيفية في العزلة وكان (فياض) الوحيد من بين إخوانه الذي يحب العزلة، ويشتاق لزيارتها فينتظر العطلة الصفية بفارغ الصبر.. تعرفا على بعضهما فكان (فياض) يذهب مع (سيف) ليجلبا الماء، كانا يتكلمان معًا ذهابًا وإيابًا، تعلقا ببعضهما فأصبحا كالأخوة وها هو اليوم (سيف) مرافق (فياض) الخاص وحارسه الشخصي؛ حيث كان

اختيار المرافقين ليس إجباريًا بل كان اختياريا، فكان (سيف) نعم المرافق وخير حارس فقد كان ناصحًا وأمينًا وله قدر كبير من الأخلاق والخصال الحميدة، كان (لسيف) غرفة صغيرة في طابق الحرس والخدم تطل نوافذها الصغيرة على قرية (نجد) يمكن رؤية المنازل من خلالها بكل وضوح، كان (فياض) يفضل المبيت عند صديقه وحارسه الخاص (سيف) في غرفته الصغيرة تلك ويتحدثان معًا طوال الليل وكان (سيف) لطالما يسأله:

- لماذا عليك ترك غرفتك الواسعة وسريرك المريح ووسادتك القطنية المزركشة ونوافذ غرفتك الواسعة الكبيرة وتلك الستائر ذات القماش الفاخر، باهظة الثمن، وشرفتك العالية في الهواء؟ لماذا عليك ترك النور الذي يملأ غرفتك وتأتي إلى هنا؟!

- وماذا بها غرفتك يا سيف؟

- ما بها! ضيقة، نورها خافت، نوافذها صغيرة الحجم وبلا ستائر، ووسائدها الممتلئة (بالتبن) المتناثر هنا وهناك وأغطيتها الصوفية الخشنة أيضا، هناك لديك سرير مرتفع وهنا تنام على الأرض!

فتح (فياض) النافذة القريبة منه ووضع رأسه على يديه وحدق خارجًا في الهواء، وقال :

- بالرغم من كل ما وصفت وذكرت من فارق كبير بين الغرفتين فإن ثمة شيئًا بهذه الغرفة ضعيفة الضوء لا يوجد بتلك الممتلئة بالأنوار !

رد (سيف) ضاحكًا شيء:

- وما هذا الشيء؟

- أتعلم ما هو يا (سيف)؟ هو الرضا أنا هنا أشعر برضا وراحة تشع من داخلي لعله إحساس المساواة مع البقية..

قال سيف: هذا هو الحال يا صديقي من هم بالجبل يتمنون الوادي ومن هم بالوادي يتمنون الجبل.

- (سيف)..

- نعم..

- هل ترغب برفاهية غرفتي؟

- لا يا صديقي لا أرغب بها فقط أتعجب من النفس التي لا تصل إلى حالة الرضا بأية حال ولا تقف عند أي مستوى!

- هل تشعر بالانزعاج من قدومي والمبيت عندك؟

- لا ! ولمَ عليّ أن أفرح بأن أحدهم أتى إلى غرفتي وأحب حياتي البسيطة هذه!

رد (فياض) وعيناه سارحتان في السماء تسبحان بين النجوم:

- حياتك بسيطة إلا أنها جميلة ولها طعم مختلف!

دعنا من هذا سيدي وقل لي..

قاطعه (فياض): لا تقل لي سيدي، أنا صديقك ولست سيدك.

وأردف: ما ذا كنت تريد أن تقول؟

- كنت أريد أن أسألك لماذا أتى (نصر) يبحث عنك هنا قبل قليل وكان مستعجلا غاضبا؟ ماذا يريد منك؟

- وصلته أخبار بأني أعطيت اليوم قمحًا لتلك الأسر التي أعطيتهم اليوم.

- هل كنت أمام والدك عندما سألك؟

- نعم فهو لا يفوت فرصة من شأنها أن تقطع حبالي بأبي.

- ماذا قلت؟

- قلت لهم بأن تلك الأسر كانت محتاجة جدًّا للقمح فقد نفدت مؤونتها؛ لأنها أسرة كبيرة.

- ماذا قال والدك (صاحب الدار)؟

- أبي.... أبي لم يقل شيئًا، (نصر) هو من يقول وقد نطق وصرخ في وجهي، وقال: وما عليك إن نفدت مؤونتهم أم لا؟! كان عليهم الاقتصاد قليلًا بدلا من التبذير.

- وهل رديت عليه؟

- لا.. لم تسنح لي الفرصة للرد.. فقد نطق أبي أخيرًا وقال: اخرج، وامتلأت عيون (نصر) بدموع الفرح.

وأردف يقول :

- إني أكرهه جدًّا؛ فهو كذابٌ يهول الأمور ويضخمها.. أمام أبٍ قاسٍ لا رحمة فيه.

- عليك أن تأخذ حذرك منه، لا تظهر له كرهك تعلم أن بوسعه أن يعمل الكثير، هو مقرب والدك، سينقص شأنك عند والدك ويزيد من خصومتكم ليجعل والدك يعاملك كما يعامل المواطنين.

- حياة المواطنين تلك أحبها ومعاملتي مثلهم فخرٌ لي، وأفضل من أن أصبح مثلهما.

- عليك أن تعمل كل شيء لكسب والدك ورضاه وأيضًا (نصر) إن أصبحت مواطنًا لن تستطيع مساعدة أحد ولا حتى نفسك؛ لذلك خفف من مشاجراتك معهما وحاول كسب رضاهما وثقتهما.

- تصرفاتهما لا تحتمل !

- أعلم.. أعلم لكن وضوحك هذا يضرك بدلًا من أن ينفعك.

- والحل يا (سيف)؟

- الحل: علينا معاقبتهما على كل شيء من دون أن يعرفا أننا أعداءهما..

- لا لا سأطلب من أبي أن يتخلص من (نصر).

- هههههه. يتخلص من (نصر) لا هو لن يتخلص إلا منك حتى ولو كنت أنت ولده وهو يقف بصف (نصر) وتعجبه تصرفاته تلك، فطبيعتهما متشابهة وجبروتهما وبطشهما وذلك الظلم يوضح من تعلق والدك (بنصر) وببطولاته، والدك يفضله لأنه ينفذ، هل تعلم والدك لا يحب من يقول له لا، بل من يقدم اقتراحات مماثلة وخرائط جديدة للتعذيب سأصادق (نصر) وعليك إرغام نفسك على أن تبتسم (لنصر).

- تصادق! هل جننت يا (سيف)؟!

- نعم أصادقه (لأنه رجل ذكي وخبيث جدًّا فوجه العداوة هذا الذي يراه منا لن يقدر عليه ويغلبه لن يقدر على قهره سوى صديق بالحيلة لا بالسيف يا (فياض)

- يا اااااااا لذكائك يا سيف !

- شكرًا على هذا المديح.

- لا تغتر!

- هههههههههه ليس غرورًا.
- دعك يا (سيف) من (نصر) وأخبرني عنك أنت.
- عني، أنت تعرف كل شيء وما الذي بقي لأخبرك به؟
- لا.....لا.... لا أعرف كل شيء!
- هاااااااااه إذن أنت تقصد (نبأ).
- نعم أقصدها هل ما زلت تدفع لحرس الخدم المال وتوصلها بدلا عنهم.

قال وبلهجة باردة

- لا.
- ولماذا؟!
- لقد مللت من أخبار والدتك (صاحبة الدار).
- والدتي هههههه ولماذا تسمع أخبارها ؟!
- لأن (نبأ) تستمر بمدحها طوال الطريق ولا تسكت أبدًا.
- نعم.. نعم فأمي تكرمها كثيرًا.
- أعلم تكرمها، لكنها كلما ألتقي بها تبدأ بالحديث ذاته فأنصرف.
- هههههه أظن أنها ينقصها شيء من خصائص النساء.
- أتقصد العقل فكلهن ناقصات عقلٍ ودين.
- لا.. لا هي ناقصة.
- ولماذا تصفها بالناقصة؟
- اسمع يا (سيف) جلبت أمي خادمات خاصة للطابق الذي نعيش فيه وهن قبيحات المنظر، سليطات اللسان، فلا نرغب حتى في النظر إليهن أو

سماعهن، بينما (نبأ) خادمة جناح أمي ومقربة منها، وهي تمتلك شيئًا من الجمال وأمي لا تراقبها أبدًا أو تشك بها، يُسمح لها بالدخول إلى جميع الأجنحة، وتتكلم معنا جميعًا مع أن غيرها مراقبات طيلة الوقت وهناك قوانين يتبعنها.

قال (سيف) وبدهشة...

- نعم ماذا يعني هل هي ليست امرأة.
- هههههه لا أعلم أظن فقط.
- واااااااااا حسرتاه!!
- هههههه لا تتحسر هكذا هذا مجرد تخمين فقط لا عليك.
- هل ستنسى أمرها يا (سيف)؟!
- لا أعلم ربما.....
- إذن عليّ الاهتمام بها؟ أنا.
- ماذا؟ ماذا؟
- هل كانت كل هذه المقدمات والمصائب حتى تتولى الأمر أنت؟
- نعم فهي تميل إليّ.
- نعم تميل إليك، ولمَ لا؟ فأنت ابن (صاحب الدار) والنساء ما يملأ أعينهن إلا المال.

ووقف (سيف) غاضبًا:

- هل حقًّا تميل لك؟! وهل وضعت عينك عليها؟!
- هههههه
- هههههه
- ما الذي يدعو للضحك الآن؟! أجب عن سؤالي فقط رجاءً.

- لا لا كنت أمزح معك أنا لا أميل لأحد أبدًا أنا لا أؤمن بهذه الأمور.

قال (سيف) بلهجة هادئة

- حقًّا لا تميل لها؟!
- لا لا كما قلت لك كنت أمزح فقط.
- الحمد لله الحمد لله سامحك الله يا (فياض)!
- دعك من هذا دعنا ننام لقد تأخر الوقت كثيرًا.
- ماذا سنعمل غدًا؟
- سيدي علينا غدًا..
- ألم أقل لك لا تقل سيدي.
- نعم نعم علينا غدًا الاستيقاظ باكرًا والذهاب إلى (التلة الصخرية) ونتفقد مدافن القمح هل تعرضت للتهوية جيدًا أم لا. سوف نخسر أقداحًا كثيرة إذا ما ملأها المواطنون قبل وصولنا والتأكد من ذلك بأنفسنا.
- نعم، دعنا (ننام) إذًا.
- سأصحو باكرًا وأنت عندما تصحو عليك اللحاق بي.
- لا يا (سيف) عندما تستيقظ أيقظني معك سنذهب معًا.
- ليكن ذلك..

نهض (سيف) مستغربًا وقال:

- ما بك؟

قال (فياض)

- إنها تميل إليّ.

فضحكا معًا وتعالت ضحكاتهما في أرجاء الغرفة الصغيرة.

خلدا بعدها إلى النوم.

(الطريق الشرقية لجبل إبراهيم)

على الرغم من أن أطراف جبل (إبراهيم) مترامية إلى داخل قرية (نجد) فإنه كان من الصعوبة شق طريق أو الحفر في ذلك الصخر الأصم فقد كان شديدًا، ومعاول المواطنين تنحت فيه ليلًا ونهارًا. ولكن لم ينتج من ذلك العمل سوى نقوش بسيطة فقط.

ولما استحال شق طريق إلى أعلى جبل (إبراهيم) وبتلك المعدات البسيطة فإن طريقه تبدأ من الجهة الغربية إلى الاتجاه يمينًا من الناحية المطلة على قرية (النجد) وكانت بداية الطريق عبارة عن رمل وحصى متناثرة هنا وهناك، تتخللها بعض الصخور الصغيرة والمتوسطة وتمتد لمسافة ربع ساعة وتبدأ بالاقتراب شيئًا فشيئًا من الجبل، كلما زاد الاقتراب زادت الطريق ارتكازًا ويغطي الطريق طبقة كثيفة من الشجيرات والنباتات الشوكية وبعض الحشائش لها بذور حمراء جميلة جدًّا حقيقية وطويلة الشكل، وهي حشائش يتميز بها جبل (إبراهيم) ولا توجد إلا في سطحه فقط، حيث تنمو على حافته بشكل متراص، يبدو في قمة الروعة والجمال، حين ينظر إليها من مسافات بعيده كأنها بساط أحمر يرتديه الجبل؛ وبسبب السيول التي جرفت بذورها من أعلى الجبل إلى الوادي ونشرتها على طول الطريق نبتت على حافة الطريق، كما كانت تغطي الطريق الشجيرات المتناثرة في تلك الأرجاء وهي شجيرات يبلغ طول أوراقها (٧سم) وطول الشجيرة نفسها تبلغ (١٥سم) وأوراقها ذات أطراف متعرجة سيقانها بنية اللون وأغصانها تتفرع بشكل طولي ولها زهرٌ أصفر ناعم

دائري الشكل منظره جذاب وهذا النوع من الشجيرات يستخدم لتضميد كسور الإنسان والحيوان، حيث تقطف أوراقها وتوضع فوق الكسر، ثم توضع الضمادة عليها يوميًّا، فتأتي بنتائج عجيبة.

عند نهاية الطريق الرملية ذات الأحجار المختلفة الأشكال والأحجام التي تنتهي أسفل الجبل مباشرة، تبدأ درجات كانت كل الجبل نفسه، وعددها (١٣ درجة) تدعى (بالدرجات الحمراء) وذلك لأنها حُفرت في صخر أحمر فاتح، وعندما تنتهي تلك الدرجات يوجد منعطف ناحية اليمين، تمتد منه طريق ضيقة حُفرت في هاوية الجبل تمتد لمسافة خمس دقائق لتنتهي هذه المسافة إلى (١٥ درجة) نُحتت أيضًا على الجبل، وهي درجات متباعدة المسافات، وعلى يمين تلك الدرجات يوجد جذع شجرة على هيئة قوس، ومن جهة اليسار يوجد الجذع نفسه للشجرة يتم التمسك والتثبت بها جيدًا في أثناء الصعود خشية الوقوع، كانت هذه الجذوع هي جذوع شجرة (الإثبة) وقد سميت هذه الدرجات بـ (درجة الإثبة)نسبة إلى تلك الجذوع، وهي شجرة طويلة جدًّا نمت على مقربة من تلك الدرجات فخرجت جذورها وظهرت على جوانب الدرجات فتم الاستفادة من تلك الجذوع في التسلق.

كانت (الإثبة) شجرة أوراقها خضراء تميل إلى السواد يبلغ طول الأوراق (١٨سم)، يوجد خطٌّ أصفر طولي يمتد من أسفل الورقة حتى رأسها كانت ثمارها حبيبات صغيرة الحجم كروية الشكل ذات لون أصفر وبيضاء تأكلها الطيور وتقتات عليها، فإذا ما نضجت أصبح لونها أحمر وأصبحت مُرة فلم يعد يأكل منها أي شيء وتسقط في الهاوية وتنمو في الوادي.

تنتهي تلك الدرجات بمنعطف يساري مسافة سبع دقائق حيث إن هذه المسافة هي الأخطر في الطريق كلها؛ حيث إنها صخور ملساء على جانبها حافة الجبل وهاوية عميقه، كانت أكثر خطورة عند هطول الأمطار فكان سطحها يمتلئ بالماء وكلما وقعت عليها قدم تزحلقت وذهبت نحو الهاوية، حيث تنتهي تلك الصخور الملساء يوجد منعطف يمينًا صغير لتخطي حافة الجبل وتبدأ مساحة سطحه الواسعة ليبدأ النسيم ومنظر القرى والوادي في جمال لا يوصف عند رؤيتها من أعلى قمته.

(سقوط)

ها هي الشمس تطلق أشعتها خلال السحب معلنة عن بزوغ يوم جديد، وتلك الطيور تتوجه نحو الوادي الأخضر مسرعة مغردة، وتلك القرى بدأت تدب فيها الحركة وكلّ متجه إلى عمله، في قمة الجبل كان (فارس) و(عبد الله) قد انتهيا من تناول وجبة الإفطار وها هما يتجهان كالعادة إلى الوادي تاركين والدتهما في أعلى الجبل وحيدة، دون خوف عليها هناك في القمة، فليس هنالك وحوش ولا حتى حشرات، توجد قليل من الحشرات غير السامة لا تظهر نهارًا.

ها هما ينزلان من الجبل بخطوات محسوبة متأنية وبقدر كبير من الصبر والتمهل والتركيز.

وصلا أخيرًا إلى الوادي، (عبد الله) يتجه إلى (التلة الصخرية) فهو أحد الجند الذين يحرسون (التلة الصخرية) التي يوجد بها خزانات القمح كان يحرس نهارًا.

أما (فارس) فعمله في أحد حقول (القات) وعليه التخلص من أوراق (القات) اليابسة من أسفل شجرة (القات) وكذلك التخلص من الحشائش المجاورة للقات، وترتيب الأنابيب الموزعة على حافة الحقل التي تضخ الماء ليتم الري بطريقة منظمة، كانت تلك الأنابيب تمتد من البئر التي يتم سحب الماء منها للري.

كان (فارس) يعمل في حقل القات ومعه إلى جانبه مجموعة من أمثاله، ومع بقائهم في الحقل وعملهم فيه منذ الصباح وحتى المساء قد أدمنوا على مضغ (القات)، ها هو النهار يرحل شيئًا فشيئًا، كان (فارس) ينتهي من عمله كل يوم الساعة الرابعة عصرًا وإن تأخر إلى الخامسة ثم عليه مغادرة الحقل والذهاب إلى كوخ في طريق قرية (نجد) يسكن فيه رجل طاعن في السن يدعى الجد (علي) ينتظره كل يوم حتى يأتي ويصعدا الجبل معًا.

كان (فارس) كالعادة يمتلئ فمه بالقات غير أنه منذ يومين قد أصبح مدخنًا فقد رأى علبة السيجارة التي أضاعها ابن صاحب الدار (هلال) فأخذها وخبأها، فإذا ما ابتعد عن الحقل بدأ بالتدخين، كان قد منعه (عبد الله) من ذلك؛ لكنه قال حتى تنتهي العلبة أكيد أنني سأتوقف من أين سأحصل على علبة أخرى.

انتظر (فارس) مجيء (عبد الله) إلا أنه تأخر هذا اليوم، فلا بد أنه لن يأتي، وقد كان في مثل هذه الظروف ينام (فارس) عند الجد (علي) لا يصعد الجبل بمفرده، ومنذ أن توفى والدهما لم يبيتا بالوادي ويتركا أمهما في أعلى الجبل وحيدة ليلًا.

قرر (فارس) صعود الجبل وهو قرار لا رجعة فيه حاول الجد (علي) منعه من الصعود بمفرده، إلا أن محاولته جميعها باءت بالفشل فقد قرر وانتهى الأمر، فبدأ يصعد الجبل فمه ممتلئ (بالقات) و(السيجارة) في فمه، يمشي مسرعًا حتى وصل إلى (الدرجة الحمراء) فراح يمشي متمهلًا بطاقة ونشاط وحيوية يحس بها الفرد عند مضغه (للقات)، ها هو يصل إلى (درجة الإثبة) عليه جعل يديه فارغتين لتمسك بالجذعين والصعود. وضع سيجارته في فمه،

ووضع كيس القات البلاستيكي داخل قميصه وأدخل أطراف القميص تحت حزامه، لم يكن ذلك الحزام جلديًّا لقد كان خيطًا صنع من قماش البنطلون نفسه.

تمسك بالجذعين وبدأ بالصعود، تجاوز درجتين وثلاثا وأربعا وتوقف يأخذ نفس عند الخامسة، وعض على سيجارته بأسنانه ونفسه يتقطع وشهيقه يرتفع، تهيأ ليواصل الصعود وأخرج نفسًا عميقًا تسبب في إفلات السيجارة من بين أسنانه وسقطت على صدره وعلقت بفتحات قميصه القطني "إنها تحترق وها هي تكبر نارها لا يستطيع إفلات إحدى يديه لإطفاء النار خشية الوقوع عليه الصمود والإسراع في الصعود وإلا احترق القميص بأكمله، لا يقدر سوى نفخ الهواء من فمه باتجاه صدره المحترق، لقد كان ذلك الهواء مساعدًا للنار على الانتشار؛ عليه الإسراع لم يبقَ سوى أربع درجات، فقط كانت قطرات النار المحترقة بالقماش تسقط على صدره وهو يتحمل ذلك، كثرت القطرات وانتهى القميص، صرخ ونادى بأعلى صوته، ولكن لا أحد يسمعه سوى ذلك الجبل وصخوره الصماء التي لا تستطيع سوى ترجيع صوته ذلك صدى ينتشر في الفضاء، وإذا به يسلم نفسه للهواء الطلق ويهوي من أعلى الجبل، تتناثر أوراق (القات) وتمزق كيسها، سقط بشكل عمودي وتهشم رأسه الصغير فتناثر كالمرآة المحطمة بين الأشجار تنقل جسده من شجرة إلى أخرى بين أشجار (الطلح) العملاقة ذات الأشواك الطويلة، هوت روحه واستسلمت، فتقاسمته الأشجار فتلك أخذت يده وثانية رجله وثالثة صدره ورابعة اكتفت برقبته، كان توزيعًا عادلًا فذلك المنحدر السحيق كان قدره المحتوم، حذاؤه الأولى سقط عند نهاية (درجة

الإثبة) وكأنها أحد الأحجار القديمة التي تركت كدليل لكنز ثمين في أحد الأماكن أما الأخرى فقد هوت معه لتختفي أسفل المنحدر والساعة أصبحت السادسة والربع مساءً و(عبد الله) لم يذهب إلى الكوخ بعد، كان صديقه الذي يتولى الحراسة ليلًا قد تأخر في القدوم وما إن وصل صديقه المناوب في الحراسة حتى هرع إلى الكوخ سأل الجد (علي):

- أين (فارس)؟! ألم يأتِ بعد؟

- لا لقد أتى وصعد.

- صعد الجبل؟

- نعم.

- وحده؟!

- نعم.

- وكيف تسمح له بذلك؟!

- لم أستطع إيقافه.

- ولمَ لم ينتظرني؟!

- لا أعلم قرر الصعود فجاءة، وقال لي بأن أخبرك بأنه سبقك بالصعود عندما تأتي.

سأله وبلهجة غاضبة أمتأكد أنت من أنه صعد الجبل؟!

اتكأ الحاج علي على حصيرته، وقال:

- نعم نعم لقد رأيته بعيني يصعد الجبل وبسرعة كبيرة وهمة عالية..

- لا أظن بأنه صعد لوحده سأذهب إلى الحقل وأبحث عنه هناك..

ها هو يمر وبسرعة بين الحقول ويسأل رفاقه هل رأيتم (فارس)؟

وكان رد كل من سألهم: لقد ذهب عصر اليوم.

عاد (عبد الله) خائبًا إلى كوخ الجد (علي) وعلى وجهه علامات القلق الشديد لتأتي عبارات الجد (علي) التي لطالما كانت بلسم الجراح.

- هون عليك يا بني ولا تقلق، (فارس) قد وصل إلى أعلى الجبل سالمًا بإذن الله تفاءل خيرًا.

- عليّ الصعود والتأكد؛ إني قلق جدًّا.

تصعد في مثل هذا الوقت لا لا لن أسمح لك بذلك عليك المبيت عندي حتى الصباح وحينها، سترى (فارس) قد أتى كالعادة في كل صباح.

كان القلق يسيطر على تفكيره فباتت عيناه ساهرتين لم يزرهما النوم، ينتظر بفارغ الصبر طلوع الفجر.

ها هي خيوط الشمس تلوح في الأفق البعيد، و(عبد الله) يتهيأ لصعود الجبل، أسرع في خطاه متلهفًا وخائفًا ليصل إلى أعلى القمة ويرى والدته التي باتت قلقة وخائفة وقالت له فور رؤيته وبنبرة خائفة:

- بني لمَ لم تصعدا ليلة الأمس لقد قلقت عليكما كثيرًا؟ بني أين أخوك؟

نظر إليها بفاهٍ ملجمٍ وهي تسرد الأسئلة ولا تتوقف.

- أما زال أخوك في الوادي؟

كانت تلك الأسئلة المتتالية قد أفزعته كثيرا ودب الخوف في جسده فهو يتذكر ما قال الجد (علي) بين لقد صعد (فارس) وكلام أمه بني أين أخوك؟ أم لم يأتِ معك؟

ليسأل نفسه: (فارس) صعد وهو ليس عند أمي ماذا يعني ذلك؟!!

أدار ظهره وأسرع ليعود إلى الوادي ليتأكد من رفاق (فارس) مرة أخرى ويبحث عنه من جديد عله قد أمضى ليلته عند حرس (القات) مع أنه لم يفعلها من قبل أبدًا؛ لكن هذا الاحتمال هو القشة الوحيدة المتمسك بها (عبد الله) في بحر المخاوف والاحتمالات الأخرى.

أمه لم تفهم شيئًا ازداد قلقها وحيرتها، لماذا لم يرد عليَّ؟ وأين أخوه؟ وهل وصل (عبد الله) إلى كوخ الجد (علي) الذي تركه قبل ساعتين فقط.

كان الجد (علي) يتناول إفطاره فدخل (عبد الله) وأفزعه وسأله:

- أمتأكد من أنك رأيت (فارس) يصعد الجبل؟!!

- نعم نعم بني أليس في الجبل؟

- لا يا جد، أمي تقول: أنه لم يصعد، لقد سألتني أين أخي؟ لماذا لم يأتِ معي؟

بدأت المخاوف تظهر على وجه الجد (علي) ولكنه أخفاها، وقال :

- اذهب إلى الحقل الذي يعمل فيه وتأكد مجددًا يا بني !.

- سأذهب..

ذهب (عبد الله) وسأل كل من يعمل في الحقل وجميعهم يقول بأنه غادر الحقل يوم أمس عصرًا وهذا الصباح لم يأتِ بعد.

تشابكت أفكاره وتعقدت الأمور أكثر..

قرر (عبد الله) الصعود ثانية إلى الجبل لم يعلم لماذا، ولكنه اتخذ قراره وصعد، ويمر من أمام كوخ الجد (علي) مسرعًا ولم يكلمه أبدًا والجد (علي) لا يزال على حالته تلك منصدمًا متسائلًا ما الذي حل (بفارس) هل ضاع ولكن أين؟ سأنتظر حتى يعود (عبد الله) بخبر سار..

صعد (عبد الله) الجبل كالمجنون وبسرعة خاطفة توقف تفكيره فلم يرَ سوى الصعود حلًّا مناسبًا، يراوده سؤال: ماذا سيقول لأمه هذه المرة؟ هل يرتدي قناع الصمت هذه المرة أيضًا.

لقد اقترب من (درجة الإثبة) وها هي قطعة النحاس الذهبية تلمع، كانت تلك القطعة مشكّلة على هيئة تمساح كانت ملصقة بعرض حذاء (فارس)، الحذاء التي بقيت دليلًا على الرحيل لقد مر المرة السابقة ولم يَرها، لعلها عندما كانت الشمس لم تشرق بعد، أو لأنه قد انعكس ضوء أشعتها عندما ظهرت لقد رآها (عبد الله).

أغمض عينيه وفتحهما مئات المرات وخلال ثوانٍ..

فهو لا يريد أن يصدق أن تلك هي حذاء (فارس) إنها هي حذاء (فارس) ولكن أين فارس؟

نظر إلى تحت ودقق جيدًا ووجد هناك أسفل إحدى أشجار الطلح تشبثت بقميص ممزق هو نفسه قميص (فارس) القطني، حذاؤه وقميصه يدلان على أنه قد وقع..

صرخ بأعلى صوته:

- أخيييييييي

اغرورقت عيناه بالدموع الحارة، وصعد الدرجات منكسرًا حزينًا قدم تمضي إلى الأمام وقدم تعود إلى الخلف، ثقل جسمه كثيرًا فحبا حبوا إلى أعلى الجبل وفور تجاوزه الحافة رفع بصره إلى الأعلى فوجد أمه واقفة دنت منه وأمسكت بيده بلسان لا ينطق مفزوع من هيئة (عبد الله) وأوقفته قائلة:

- بني ماذا حل بك؟ لماذا كل هذا البكاء؟!.. ما الذي حدث؟!

عيناه في الأرض لا ترتفعان أبدًا والدموع تغرقهما، وتتساقط مسرعة هاربة، كانت الأم تسأل وتسأل ولا جواب..

وقع بصرها في تلك الحذاء المتشبث بها (عبد الله) بيده وبلمح البصر عرفت كل شيء.. عرفت سر البكاء.. وسر السكوت.. وسر الاضطراب صباحًا.. جثمت على الأرض كانت تحاول الصراخ الطويل فلم تستطع تسارعت دقة قبلها وانقطعت أنفاسها من حين لآخر.

أسرع (عبد الله) إليها وأسندها وضمها:

- أمي..أمي لتصبري يا أمي.. لندعو له.. هكذا قدره.

أخذها إلى داخل الكهف، أعطاها الماء لكنه انتظر في فمها ولم يجد ممرًا يدخل إلى أحشائها، كانت حالتها تلك تزداد سوءًا، زادت أحزانه وانكسر قلبه، ها هو بجوار أمه يدعو الله أن يلطف بها معلنا ذلته وقلة حيلته أمام ربه، راضيًا بما قد كتب، ها هو الليل ينتصف وترحل والدته عن هذه الحياة، تساقط أفراد أسرته ورحلوا الواحد تلو الآخر سريعًا ليبقى وحيدًا.. يحمل في قلبه بحرًا من الأحزان، قام بتجهيزها ودفنها إلى جوار والده أمام الكهف وزرع على قبرها نبتة طيبة الرائحة وأمضى ليله كئيبًا وحزينًا، ودموع كدخان المطر وقلبه يزفر الحسرات.

(قيلولة هانئة)

ساعة الحائط قاربت على أن تكون التاسعة والنصف ليلًا وما زال (صاحب الدار) في (المنظرة) هناك بالقرب من النافذة الكبيرة، وإلى جواره الواشي الكذاب (نصر) يستمعان إلى المذياع الذي ينقل مباشرة على الهواء أخبار الدولة التي تتوالى أولًا بأول وهناك في بوابة الدار الخارجية أحدهم قادما على وجل يصعد درجات السلم متوجهًا نحو (المنظرة) إنه صاحب الفهم العالي بالسياسة (فاروق) ابن (صاحب الدار).

دخل (المنظرة) نظر إليه باستغراب، سأل والده بنبرة جافة..

- ما بك؟ ومتى أتيت من المدينة؟

- أتيت للتو يا أبي..

- ولماذا أنت غاضب؟ ماذا هناك؟!

قال وبسرعة:

- تم تغيير المحافظ..

- متى؟

- اليوم عصرًا والمحافظ الجديد يبدأ عمله من الغد صباحًا.

نطق (نصر)

- وما الذي يزعجك يا سيدي؟ سنتولى أمره كسابقيه!.

- لا، هذا مختلف عنهم..

- وما المختلف فيه؟

- أبي إن كل الذين تولوا هذا المنصب لم يحدثوا تغييرًا في المدينة وكانوا يحترمون قرارات الحكام وحكام العزل، ولا يقتربون من أي عزلة لم يعرفوا عن العزل شيئًا سوى صفات وهدايا حكامها.

قال (صاحب الدار) وبغضب:

- وهذا؟

- هذا يعرف عن العزل كل شيء، مساحتها، سكانها، طقسها، ثرواتها، كل شيء يا أبي قد دون كل ذلك وجعله في كتاب.

- وما أدراه بهذا كله؟

- هذا هو الغريب يا أبي لقد كان قبل سبعة أشهر تاجر عنب هنا في عزلتنا.

- في عزلتنا؟ وكيف، تاجر وأصبح محافظا؟

- نعم في عزلتنا، لا، هو ليس تاجرًا كان يأتي بالشاحنة إلى هنا يملؤها ويوصلها إلى المدينة ليسلهما إلى صاحبها الأصلي، وكان يدخل العزلة بقناع صاحب الشاحنة، وأيضًا لديه صورٌ في هذا الكتاب للمواطنين والمزارع وللدار، وقد وصف الدار وصفًا دقيقًا كتب عن جميع الطوابق وأيضًا مسمى الطابق الأرضي (طابق الغموض).

احتل الغضب مساحات شاسعة من وجه (صاحب الدار) وزاد لون وجهه سوادًا وتصبب عرقًا، تورمت أوداجه ما كان منه إلا أن أخذ الراديو بأعصاب متشنجة ورماه إلى الخارج صارخًا :

- دخل عزلتي علم كل شيء وأين أنتم من هذا كله؟

(نصر) و(فاروق) واقفان يرتجفان لم يتفوها بكلمة واحدة..

قال (نصر):

- سنتخلص منه يا سيدي لا تقلق!

- لا أقلق، لا ليس بهذه السهولة تتخلص منه إنه ذكي لقد عاش مع المواطنين وأصبح يعرف كل شيء وكل عمل وكل خطوة يتوقع كل شيء سوف نقوم به.

صمت الجميع للحظات.

فقال (صاحب الدار):

-عليكم دعوة كل حكام العزل المجاورة لتناول الغداء في الدار غدًا و(المقيل)

رد عليه (نصر):

-غدًا سيكونون هنا يا سيدي سأرسل بدعوتهم حالًا.

تعود الشمس لترسل أشعتها من بعيد وتصعد نحو السماء ببطء معلنة بداية يوم جديد كانت دعوة الحضور قد وصلت إلى الحكام، كان قد أوصل هذه الدعوات صاحب الابتسامة الصفراء المتملق (شاكر) الخدم يسرعون في كل الاتجاهات جميعهم ملتزم الصمت وسريع العمل.

وفي وقت مبكر أصبح كل شيء مرتبًا بانسجام ودقة متناهية كانت ملامح الخدم والحرس توحي بقدوم أحد، وما إن كانت الساعة الحادية عشرة ظهرًا حتى اكتمل وصول جميع الحكام المدعوّين، كان في استقبالهم في بوابة الدار (شاكر) و(نصر) وكانت وجوههم تشع بالسرور والابتهاج يقدمون كلمات الترحيب وعباراتها التي لا تنتهي، اكتمل الوصول وتم تقديم وجبة الغداء

سفرة طويلة متنوعة، لحوم مشوية، وأخرى مطبوخة وأرز فاخر وأصناف شتى، وُضعت على تلك السفرة.

قعد الجميع على سفرة الطعام يتبادلون الابتسامات والمدح والثناء، انتهوا من تناول وجبة الغداء وقُدم لهم الشاي، والفواكه وبعدها قعدوا وبدأوا بتناول (القات)[٥] و(القات) شيء أساسي رئيسي لا غنى عنه مطلقًا، واستهلاكه أصبح عادة شائعة تشمل الرجال والنساء والأطفال دون تمييز بين الفقراء والملوك والخدم الجميع يتناول وكان كل أهل القرى يتحملون الجوع لأيام ولكن لا يستطيعون البقاء يومًا واحدًا بلا (قات)، و(القات) له أنواع فالجيد هو ل(صاحب الدار) وضيوفه والمتوسط لأقاربه والسيئ للخدم والحرس وأهالي العزلة، وهو لا يترك لهم كمية محدودة فقط لكنه متوفر لهم كل يوم يتناولون (قات)، وانتفخت أوداجهم.

كان (القات) غصونه تؤكل منها الرأس فقط ويترك الباقي وكذلك الأوراق الرطبة أما القاسية الغليظة فترمى ومنهم من يتناول القات ويضيف إلى فمه القليل من السكر بين الحين والآخر، ومنهم من يتناول الشاي وآخر يكتفي بالماء، كان القات يطحن بأسنانهم ولا يتم بلعه بل يترك بجانب الفم من إحدى الجهات حتى يصبح منتفخًا حتى إذا انتهى الشخص من تناوله أخرج

---

[٥] (القات) هي شجرة خضراء فاتحة تحتل مساحات شاسعة من العزلة تقطع بعناية يرسل جزء منها إلى الدار لمن فيها والجزء الآخر يلف بأوراق الموز أو قطع من القماش القطني وترش بالماء وتربط ربطا وثيقًا وترسل إلى المدينة وكانت تلك الإجراءات لكي يصل (القات) إلى المدينة وهي خضراء محتفظة بنضارتها وطراوتها.

ذلك (القات) المطحون ورماه، بدأ يتحسن تفكيرهم فقد منحهم قوة التفكير وحسن التركيز، كما أنه عند مضغه يشعر صاحبه بالقوة والنشاط وتزداد رغبته بالعمل؛ لذلك كان يسمح للمواطنين بتناوله وهو مادة مخدرة يشبهها كثيرًا في النتائج وأيضًا الإدمان وعدم القدرة على تركه.

كان للقات مفعول أنه حين يتناوله صاحبه فقط يشعره بالقوة والنشاط والحيوية، وللقات أضرار تظهر بعد عمر كان يضر بصحتهم على المدى الطويل، وأيضًا من يتناوله يتميز بوجه شاحب وعينين غائرتين وعدم القدرة على مقاومة الأمراض، ها هو (صاحب الدار) يبدأ بموضوع الاجتماع الطارئ هذا، ويقول:

- تم تغيير المحافظ ليلة الأمس، محافظ غير كل المحافظين عرف عن عزلنا كل شيء عاش معنا وعرف قوانينا، إنه ينوي لعمل ما، وهذا ما يدل عليه دخوله إلى عزلنا متنكرا.

ثم طلب النقل من محافظته الأولى إلى محافظتنا هذه إنه في محافظته السابقة قد عمل لها الكثير لقد حول قراها في أشهر قليلة إلى مدن حديثة ها هو اليوم يفكر بدخول عزلنا جميعًا وإحداث ذلك الذي يسمى التطور، علينا منعه من ذلك وعزلنا ستظل لنا نحن ولن تدخل أضواء المدينة.

كان الجميع يهز برأسه معلنا الموافقة انتهى الاجتماع بمعرفة الجميع أن عليهم التكاتف واستخدام الطرق المتعارفة المستحيلة والممكنة لإبعاد ذلك المحافظ محب التطور صاحب الهوس ذلك بأسرع وقت..

(ذكريات)

كان الليل دامسًا خاليا من النجوم والقمر لم يطلع بعد، و(عبد الله) بأعلى الجبل يعاني لوحده، ذهب إلى قمة الجبل الذي هو فيه جبل (إبراهيم) وجمع الحطب وأشعل نارًا كبيرة رأتها كل القرى وجلس بجوارها وعيناه بحرٌ مضطرب أمواجه، وقلبه بداخله إعصار من الأحزان.

كان ذهنه شاردًا يسترجع من أعماقه ذكرياته الجميلة تلك النار التي اشتعلت من قبل مرة واحدة على هذه القمة، فتم رؤيتها لمسافات بعيدة وتساءل أهالي القرى عن سببها وأعجبوا بمنظرها، لقد أشعلها مع أخيه (فارس) عندما كانا صغيرين أشعلاها ودارا حولها بفرحة غامرة وقلوب تكاد تطير وكان والداهما ينظران إليهما من باب الكهف، فكان يظهر أحدهما على أضواء تلك النار ويختفي ويظهر الآخر وهما يدوران حولها، كانت أمهما تناديهما:

- هيا تعالا كفاكما لعبًا لقد تأخر الوقت. تعاليا لتناما.

إلا أنهما واصلا الدوران بدآ يغنيان ويصيحان بأصواتهما الصغيرة

جبلنا يأمن فيك والدانا

جبلنا سكنا فيك وسكنت فينا

جبلنا مهما كبرنا

لن نتركك أبدًا ما حيينا

كانت الكلمات تلك نابعة من القلب ألفتها البراءة ونطقتها الطفولة الجميلة..

لقد أتت فكرة إشعال النار تلك من رؤية تلك القرى البعيدة خلف سلاسل الجبال كانت الأرض فيها متلألئة ورائعة، وكان ذلك المكان البعيد هو المدينة في ليلة العيد الذي لم يكن هذان الطفلان يعلمان أنه العيد، أما أهالي (عزلة ردهان) فقد كانوا يعرفون أنها ليلة عيد، بأن أعداد الفوانيس المضيئة والمتراصة حول الدار قد زاد عددها وعدد المواشي التي ترسل إلى الدار حينها يعرفون أنه عيد.

كان (عبد الله) يسترجع تلك الذكريات حتى سقط على الأرض نائمًا مرهقًا كورقة خريف عصفت بها الرياح ومرت بكل بقاع الأرض.

(وعاء الزيت)

غادر (عبد الله) مغارة حزنه الطويل وقرر النزول إلى الوادي، وليسَ نزولًا أبديًّا بل يعمل في الوادي ثم يعود فقد ازداد تعلقًا بالجبل أكثر من ذي قبل فأسرته جميعها في الجبل فالجبل أصبح أجمل مكان بالنسبة له على الرغم من ذكرياته المؤلمة فيه، وكانت ذكرياته التي تبعث إلى نفسه السرور قليلة التأثير مقاربة على الانتهاء.

نزل من الجبل وفي أسفله التقى بالجد (علي) الذي كان قلقًا طيلة الفترة الماضية، فلا أحد ينزل من الجبل، ولم يعرف ما هو مصير (فارس)، وهل ظهر أم لا؟..

كان متلهفًا لمعرفة ما سبب غياب (عبد الله) الطويل، قص (عبد الله) على الجد (علي) ما جرى منذ آخر مرة التقيا فيها، وحتى الآن، فبلغ به الأسى والحزن مبلغه فواساه ودعا له وخفف من حزنه.

أكمل (عبد الله) القصة واستمع مواساة الجد (علي)، ثم ذهب نحو عمله بعيون يملؤها اليأس والفتور، ومضت أيام قلائل وهو في حالة ضجر وحزن فقرر أن يذهب إلى المدينة، وما كان عليه سوى أن يختبئ تحت صناديق المانجو داخل الشاحنة الذاهبة إلى المدينة، تحركت الشاحنة ليلًا فكان اختباؤه في الشاحنة سهلا، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة ليستطيع الخروج من العزلة.

ظن أهل العزلة أن (عبد الله) قد استقر في الجبل ولا يريد النزول، علم رفاق (فارس) بالخبر فأصيبوا بالهلع والذعر وحزنوا عليه حزنًا شديدًا، عادوا

إلى أكواخهم مكتئبين منكسي رؤوسهم يحكون لأمهاتهم ما جرى، وكانت الأمهات قد تجمعت وسط القرية تسمع الخبر ويتأوهن عليه وعلى سنه الصغيرة فتقول إحداهن: كان صغيرًا..

وتقول أخرى: كان جميلًا.. كان متواضعًا.. كان خدومًا.. كان طيبًا..

ويعددن صفاته

نطقت أكبرهن سنًّا قائلة:

- لا أدري ما الذي أبقاهم في الجبل حتى الآن فالجبل طريقه وعرة ليس من السهل صعوده والنزول منه كل يوم.

سألها حفيدها الصغير القاعد إلى جوارها:

- لماذا عليهم النزول من الجبل كل يوم يا جدتي؟

- لأجل العمل والرجوع بغذاء من الوادي للأسرة المتبقية هناك في الجبل ففي الجبل لا يوجد شيء يمكن التغذية منه، فعلى سطح الجبل لا يوجد سوى حقول قمح صغيرة وحقول فاصوليا وماء يتقطر من الكهوف بقية الأشياء يجلبونها من الوادي ويصعدون بها.

- ألا توجد لديهم حيوانات تعطيهم اللحوم والحليب؟

- لا يا صغيري لا يوجد حتى وحوش مفترسة ولا أرانب في سطح الجبل يقومون بتربيتها فإذا ما كبرت ضلت الطريق أو تخلف عنها راعيها سقطت من أعلى الجبل.

سألت الجدة أحد رفاق (فارس):

- أما علمت يا بني من أين سقط (فارس)؟

رد عليها ذلك اليائس بصوت قانط من (درجة الإثبة).

- من درجة الإثبة!!!

- نعم يا جدة لقد سقط منها الكثير فإذا لم يتم تثبيت القدمين جيدًا في الدرجات أو لم يتم التمسك جيدًا فإنه يهوي ويسقط، وقد سقط منها الكثير وجميعهم كانوا يصعدون الجبل ليلًا، وآخر حادثة وقوع وسقوط رجل كان يحمل معه (وعاء زيت).

اتضح جيدا حب الاستماع والإنصات في عيون الأطفال وتجمعوا ليسمعوا قصة صاحب (وعاء الزيت) بتلهف، تعالت أصواتهم وكثرت أسئلتهم..

- صاحب (وعاء الزيت) ما قصته يا جدة؟

- هيا جدة قولي من هو؟

- يا جدتي كيف سقط؟

وما إن فتحت فمها تريد الحديث حتى وقفت تلك الأصوات والأسئلة وبرزت العيون وأصغت الآذان..

أصلحت الجدة جلستها وأرجعت ظهرها فأسندته إلى أحد الأكواخ ومدت رجليها القاحلة ووضعت عكَازها جانبًا وقالت:

- إنه رجل كان في سن (التاسعة والأربعين) على ما أتذكر وكان اسمه (إبراهيم)، كان لديه وعاء كبير من الزيت يريد أخذه معه إلى أعلى الجبل وكان الليل قد جن، وعندما انتهى (إبراهيم) من عمله في الوادي وأراد الصعود إلى أعلى الجبل حاول الجد (علي) منعه من الصعود إلا أنه رفض وقرر الصعود ليلًا، وكان الجد (علي) في تلك الأيام لا يزال شابًا يسكن مع والديه وأخته، أما الآن فأصبح وحيدًا، كانت ليلة هادئة وبرد قارس، كانت طريق الجبل خطرة

جدًّا، خصوصًا في الليل، ولم يسبق أن صعد أحدهم ليلًا ثم وصل إلى أعلى الجبل، فقد سقطوا جميعهم.

كان (إبراهيم) شديد الإصرار على الصعود وكان عليه ربط ذلك الوعاء (وعاء الزيت) على ظهره، وقد ساعده في ربطه الجد (علي) وأيضًا ربط موازيا باليد اليمنى عودا من الحطب الأخضر، لم يكن يابسا لكي لا يشتعل بسرعة ويحرق يده، بل يحترق بطيئًا كان ذلك العود قد قطع لتوه من الشجرة، غمس العود بأكمله في الزيت وهو زيت خاص لإشعال النار وأيضًا بُللت ملابس (إبراهيم) بالماء فإذا ما تحولت النار ناحيته بفعل الرياح أو غيرها لا يشتعل، أُخذت كل تلك التدابير وصعد (إبراهيم) الجبل.

مضى وقت على صعوده والجد (علي) يراقبه من أمام كوخه مستدلًا على (إبراهيم) بالنار المشتعلة التي يحملها حتى إن وصل إلى (الدرجة الحمراء) وتوجه يمينا ومر بكل المنعطفات حتى غاب عن نظره فهو يمر بالجهة الشرقية للجبل والجد (علي) على الناحية الأخرى.

على الجد (علي) الانتظار حتى يصل (إبراهيم) أعلى القمة حينها سوف يراه من جهته الغربية، لقد تأخر (إبراهيم) بالظهور وبدأ الجد (علي) يقلق عليه، كان يراوده شعور متشائم من ذلك التأخر لكنه يعاود ويطمئن نفسه بأن الطريق طويلة ولعله تأخر فيها..

مضت دقائق حتى سمع صوت (وعاء الزيت) النحاسي يسقط من الجبل ويتدحرج إلى أسفل المنحدر لكن أهالي القرية لا يعرفون ذلك الصوت.. صوت ماذا بالضبط، الجد (علي) لا يزال ينتظر فهو لم يسمع سقوط الوعاء فهو

بالجهة الأخرى وهي بعيدة عن المنحدر، ذهب أحد المواطنين مسرعًا إلى الجد (علي) وسأله:

- هل صعد أحدهم الجبل قبل قليل؟

رد عليه مستغربًا:

-نعم! ولماذا؟

- وهل كان يحمل وعاء نحاسيًّا أو ما شابه ذلك؟

فرد عليه:

-نعم كان أحدهم يحمل (وعاء زيت) نحاسي؟

- ماذا؟ لقد سقط.

- من الذي سقط؟ صاحب وعاء الزيت يا جد (علي).

صرخ بوجهه :

- ماذا سقط ؟! هل أنت متأكد من ما سمعت؟

- نعم نعم.. لقد سمعنا صوت وعاء نحاسي قبل ساعة يسقط من أعلى الجبل، لقد سمعته القرية بأكملها.

- وهل سمعت صراخا؟

- لا لم نسمع، ومن كان الذي صعد؟

- إنه (إبراهيم) هو الذي صعد لقد حاولت منعه لكنه رفض وأصر على الصعود..

- لقد سقط إنا لله وإنا إليه راجعون.. الله يرحمه !

صرخ الجد (علي) في وجهه: أعوذ بالله !.. كن متفائلًا، لقد كان وعاء الزيت مربوطًا على ظهره ولعله انفك رباطه فسقط.. سيظهر الآن في القمة سترى أنه يحمل بيده عودًا مشتعلًا.

- لكننا لم نرَ أية أضواء في الجبل!

- لعلك لم تتأكد..

- بل أنا متأكد من ذلك لم تكن هنالك أية نار ولا حتى ضوء خافت.

- دعنا ننتظر سيظهر..

مر وقت طويل وهم ينظرون قليلًا ثم انسحب ذلك الرجل، وعاد إلى القرية ليخبرهم ماذا كان ذلك الصوت الذي سُمع من الجبل ويخبرهم بصاحب الوعاء..

الجد (علي) لم يقتنع بأن (إبراهيم) قد سقط؛ ظل ينتظر لكي يراه يصل إلى القمة.

أتت شمس النهار وأقنعته بطريقتها، وحينها أدرك الاحتمال الذي لم يكن يريد تصديقه.. إن (إبراهيم) قد سقط.. ومنذ ذلك اليوم سمي الجبل بجبل (إبراهيم) لقد كان يُسمى بجبل (نجد) من قبل لقربه من قريتنا (نجد)..

سألها أحد الأطفال الجالسين إلى جوارها:

- هل صعد أحدهم ليتأكد من سقوطه ؟

- نعم صعد في الصباح الجد (علي) ومعه آخرون.

- وهل وجد أشلاءه؟

- لا، جميع من سقطوا من الجبل لا أحد يجد لهم أشلاء؛ يستدلون على السقوط بالملابس المتفرقة بين الأشجار.

يسألها آخر: لا أحد يجد أشلاء؟.. لماذا؟

- لا أحد يجد أشلاءً؛ لأن هناك كما قيل طيورًا ضخمة تعيش في الجبل (الحمى) المجاور لجبل (إبراهيم) من جهة الشرق وكل من يقع في جبل (إبراهيم) و(الحمى) وجبل (رماح) الجبل المجاور لجبل (إبراهيم) من الجهة الغربية وفور سقوطه تحضر تلك الطيور فتأكله، وتذهب وتختفي.

رداء الخوف يلتف حول الأطفال المستمعين للعجوز.. يلتصق بعضهم ببعض، دقات قلوبهم تتصاعد، تحدق عيونهم الممتلئة بالرعب بفم تلك العجوز، ملامحهم تنتظر إكمال القصة، سكتت قليلًا ثم عاودت الحديث لتقدم المزيد عن تلك الطيور:

- قيل بأنها تبني أعشاشًا كبيرة في قمة جبلي (الحمى) و(الرماح)..

سألها طفل بصوت متقطع مرتجف: هل هي طيورٌ عادية شكلها كالتي نعرفه؟

قال آخر: هل تأكل لحوم البشر فقط؟

استرجعت من ذاكرتها، وقالت:

- لم يشاهدها أحد من قبل إلا مرة واحدة حكى لي والدي أنهم عندما كانوا يسكنون قديمًا في أعلى الجبل عندما رحلوا من الوادي بسبب الأمطار والسيول، قال إن أطفالًا كانوا يلعبون في سطح الجبل على مقربة من الحافة فسقط أحدهم فهرع مجموعة من الناس ينظرون إلى الأسفل فور سقوطه أسرعوا إلى أسفل الجبل إلى المنحدر فشاهدو طيورًا ضخمة سوداء لها أعناق طويلة ومناقير عريضة رأوا أحدها يتجه نحو الأسفل وله رأس بحجم رأس الثور، كان رأسها لا يوجد فيه ريش كانت قرعاء صلعاء لها أجنحة طويلة

وأرجل قصيرة عريضة ذات لون بني ومخالب طويلة وحادة، لقد شوهدت لأول مرة وحينها عُرف سبب اختفاء أشلاء كل من سقطوا، لا أحد يعلم هل تأكل اللحم فقط أم لا، وكيف تعرف أن هناك أحدًا سقط.

- أليست أعشاشها على القمم البعيدة المرتفعة للجبلين؟

- لا أحد يعرف يا أبنائي كيف تعرف.

- كم كان عددها؟ هل هي أسرابٌ كبيرة؟

كانت حينها كما قال والدي ستة ثلاثة منها من جبل (الحمى) وثلاثة عادت إلى جبل (رماح).

- كيف تمكنت من التقاط الأشلاء ألم تكن صغيرة جدًّا؟

- عندما يقع أحدهم من الجبل يسقط ليقع في المنحدر أسفل الجبل، وهي منحدرات صخرية ملساء فليست تربة ولا حشائش حتى تختفي بداخلها الأشلاء.

- جدتي وعيونها، لم تذكري لنا شكلها؟

- عيونها تشبه إلى حد كبير عيون الإنسان فهي ملونة ولها رموش وتعلوها الحواجب وأما شكلها وموقعها من الوجه كالطيور العادية.

وقفت العجوز معلنة انتهاء القصة تاركةً على وجوه الأطفال علامات استفهام كثيرة، تتابع وقوف الأطفال وعادوا إلى أكواخهم بطاء الخطى، شاردي الذهن، كلّ يُفكر بطريقته وحسب قدراته العقلية بتلك الطيور، وما إذا كانت طيورًا حقًّا أم أن القصة كلها خيالية ليس لها واقع.

(بخور جنوبي)

ها هي الشمس تشرق بنشاط كعادتها لتقصد أشعتها الحقول والمروج والجبال، وتلك الأكواخ، وها هو القصر (الدار) يمتلئ بضجيج الخدم وصوت أقدامهم.

(صاحب الدار) انتهى من إفطاره وتناول كوب الشاي وصعد إلى سطح الدار وقعد بإحدى الزوايا يوزع نظراته بين الربوع، مضت ربع ساعة وهو على حالته تلك فصعد (نصر) إليه غاضبًا جامعًا حواجبه.. وصل إلى سيده فوقف ولم ينتبه السيد لحضوره فنادى:

- سيدي!.. سيدي!

- ماذا هناك يا (نصر)؟

- سيدي إنه (فياض).

- ماذا هذه المرة ؟ هيا قل!

- سيدي، ذهب (فياض) إلى إحدى القرى وأخبرهم بأن جميع المواشي هذه السنة لهم والسنة القادمة يأخذ منهم.

صاح (صاحب الدار) بأعلى صوته، وقدحت عيناه شرار الغضب، وقال:

- ومن أمره بذلك؟!

رد (نصر) بلهجة المذعن المطيع:

- لا أعلم يا سيدي !

- اذهب وآتني به.. هيا هيا..

- حاضر سيدي..

بحث (نصر) عن (فياض) في أرجاء الدار، وجميع الأجزاء فلم يجده فلمح (سيف) في ساحة الدار فأسرع إليه.

- أين (فياض)؟

- لا أعلم سيدي.

- أين هو؟

- قلت لك لا أعلم هل سأكذب عليك؟..

- سأجده بطريقتي وأنت سنلتقي مرة أخرى.

وانصرف (نصر) وذهب باتجاه البوابة الرئيسية فالتقى بـ (فياض) هناك فنظر في عينيه وقال بغضب:

- سيدي يريدك فورًا.

- حاضر سآتي..

- الآن.

صعد فياض إلى السطح مستغربًا من هذا النداء الصباحي ووجه (نصر) الغاضب.

- صباح الخير يا أبي؟

- ماذا فعلت أمس؟

- ماذا يا أبي؟

ونظر إلى (نصر) لأنه يعلم أنه قد أخبره بشيء ما.

- أعفيت أهل إحدى القرى من دفع مواشيهم إلينا.

- نعم يا أبي.

- ومن قال لك ذلك؟

- لقد فكرت ووجدت أن عدد القرى كثيرة، وأن المواشي التي نأخذها يذهب الجزء الأكبر منها إلى السوق، فقلت لو وزعنا القرى فقرية نأخذ مواشيها وقرية تكون مواشيها للمواطنين، فحرام أننا نأخذ منهم مواشيهم وليس لهم شيٌء منها وهم من قاموا بتربيتها.

- ولماذا لهم؟ نحن من يحكمهم؟

- أبي هم بأشد الحاجة لها؛ هم من يربونها.

- لا ليس لهم شيء ولا تصدر قرارات؛ أنت لا تصلح لهذا فقلبك ضعيف.

- أبي هذا حرام نأخذ منهم كل شيء وهم في أشد الفقر والحاجة.

- لا عليك من هذا.. وإياك أن تتدخل بأشياء مثل هذه مرة أخرى، إنني أحذرك من تصرفاتك البلهاء هذه لا تكررها، ستأخذ من كل القرى وفي كل الشهور، ولا شأن لك بهم وبفقرهم.

سكت (فياض) لأنه يعلم أن لا جدوى من النقاش أكثر فانصرف..

ها هو الليل ينتصف وذاك الهلال ينزوي في طرف السماء يحاول جاهدًا أن يلقي على القرى ضوءه الخافت، (فياض) يغلق باب غرفته ويتوجه إلى غرفة (سيف)، طرق الباب ففتح له..

- مساء الخير..

- مساء الخير..

وذهب (فياض) إلى النافذة ليجلس جلسته المعتادة، ساد الصمت.. فقال سيف:

- ما بك؟

- لا شيء.

- ماذا كان يريد منك والدك صباحًا؟

- هل أكملت عملك في القرية يا (سيف)؟

- نعم أكملت، عدت قبل قليل هل حدث شيء سيئ صباحًا؟ لماذا لا تقول وتغير الموضوع؟

- لا شيء سوى أن عملنا بالأمس في القرية وإعطاء الناس من المواشي قد وصل خبره إلى والدي.

- نعم وماذا حصل؟ ماذا قال (صاحب الدار)؟

- غضب جدًّا حاولت إقناعه لكن كما هي العادة لم يقتنع لا فائدة..

- وما الحل؟ هل سنعود ونغير رأينا ونأخذ المواشي.

- لا أعلم، إني أفكر، أبي أمرني بأن آخذ المواشي ولا أحدث أي تغيير..

- لا يوجد حل سأذهب أنا وأنت غدًا ونأخذ المواشي هذه المرة إلى أن نجد حلًّا لتغيير هذا القرار وأظن نحتاج سنين لذلك.

- لقد توقعت أن يعرف أبي بالخبر لكن ليس بهذه السرعة.

- لا نحن مراقبون دائمًا..

- من يراقبنا يا (سيف)؟

- من أبله القرية ذاك (مغوار).

- مغوار؟!

- نعم.. بأمر من (نصر).

- كيف؟

- (مغوار) ليس أبلهَ يتظاهر بالغباء والبلاهة واللا مسؤولية وقلة الحيلة.

- من قال لك ذلك؟

- (نبأ)..

- وما أدراها؟

- لقد رأت (مغوار) ينتظر خلف بوابة ساحة الدار ليلًا في أثناء عودتها إلى الكوخ فاختبأت وراقبته حتى وصل إليه (نصر) وأخبره بالأمر.

- إذن هو من يراقبنا؟

- نعم.

- علينا أن نجد حلًّا وطريقة نتخلص بها من مستشار أبي.

- نعم سنجد ولكن بصعوبة.

- كثرت شجاراتي مع أبي هذه الأيام إني أحاول الدفاع عن هؤلاء المواطنين قليلي الحيلة..

- لك نية طيبة تفردت بها عن بقية إخوتك.. طريقهم مظلم، وطريقك يملأه النور نساعد المواطنين ولا نتوقف..

أدار (فياض) وجهه واتجه نحو (سيف) يحدق به ويبتسم..

- ما بك؟ لماذا تحدق بي هكذا؟

- أخيرًا بحثت عنك (نبأ)..

- لا لا.. ليس كما تظن هي بحثت.. لكي تخبرنا بأننا مراقبون هذا فقط لا أكثر.

- هل نسيت أمرها؟

- تمامًا.. كليا.. وأظن أنه كان علينا فهم هذا من قبل.

- وأنت يابن (صاحب الدار) ألم تنوِ الزواج بعد؟ ألم يفكر والدك بتزويجك وتوثيق علاقة جديدة مع أحدهم؟

- لا.. لا أظن أن والدي سيفكر بي أبدًا، أمي هي من ستقوم بتوطيد علاقتها مع صديقاتها.

- أمك؟!

- نعم..

- بمن سوف تزوجك؟

- بابنة صانعة (البخور).

- من؟

- فتاة والدتها تصنع (البخور).

- حقًّا؟

- نعم..

- وأنت وافقت، صحيح؟

- لا.. لم أوافق.

- وهي هل تصنع (البخور) مثل والدتها هههه؟

- لا أدري، ما أعلمه أن والدتها تصنع (البخور) الرائع الذي يتميز به جناح أمي.

- من أين هي؟

- من (الجنوب) هي صديقة أمي أتت الأسبوع الماضي لزيارة أمي وكانت ابنتها معها.

- هل رأيتها؟

- نعم..

- حقًّا؟

- لقد أمضت الأسبوع مع أمها في دارنا وفي غرفتي أيضًا.

- هل هي جميلة؟

- قليلا، هي سمراء.. قصيرة وممتلئة.

- هههههه حقًّا ما تقول؟

- نعم ولماذا تضحك؟

- لم توافق لأنها ممتلئة؟!

- لا.. لا ليس لهذا السبب!

- وما هو السبب؟

- لا أريد الزواج حاليًّا..

- ماذا قلت لأمك حتى أقنعتها؟

- قلت لها سأتزوجها إن تركت والدتها صنع (البخور).

- لماذا لا تريدها أن تصنع (البخور)؟

- ليس (البخور) وصناعته مشكلتي أريد أن أرفض ولكن بطريقة يكون لي الحق فيها فعندما تكون الأمور معقدة ومستحيلة يقولون عندما (ينهق حمار البحر) فوالدتها لن تترك مهنتها التي تكسب منها الملايين، وأيضًا هي ورثتها وتميزت بها فتركها لمهنتها مستحيل كاستحالة أن ينهق حمار البحر الأعجم.

- هههههههه هههههه يا لذكائك يا (فياض)!

- لم أكن أريد إغضاب أمي.

- ماذا قالت؟

- وقفت بجانبي وقالت أن والدتها رفضت ترك المهنة هذه، ونحن لا نريدها.. لم تقبل شرطنا، ونجوت من الموضوع بسلام.

- ومتى سوف تتزوج؟

- لا أدري..

- هل أنت منتظر ابنة أحد الفقراء في إحدى القرى.. وقد وقعت في حبها؟

- ولماذا اخترت فتاة فقيرة؟

- كما هي الحكاية التي رواها لنا الحارس الخرف (عمران) كبير الحرس.

- الحكايات لا تشبه الواقع.

- حسنًا ماذا سنعمل غدًا؟ هل أذهب إلى القرية وأخبرهم بأننا غيرنا رأينا وقررنا أخذ المواشي منهم؟

- لا يا (سيف)..

- ماذا نعمل إذا؟

- سنخفي (مغوار) لفترة.. وقتها أذهب إلى أبي وأقدم إليه ثمن تلك المواشي على أنني قد أرسلتها وتم بيعها في السوق.. حينها أنت ستذهب إلى

القرية تخبرهم بأن مواشيهم لهم كما قلت لهم ولكن ينشرون خبرًا بأني رجعت وأخذتها منهم.

- ألن يعلم والدك؟

- لا أدري لكن إن كان (مغوار) هو الوحيد من يراقبنا فهو لن يعلم؛ لأنه تحت سيطرتنا، ولأن القرية بعيدة (فنصر) لن يذهب إليها.

- كيف سنخفي (مغوار)؟ سنسجنه؟

- لا.. لقد غيرت رأيي سأكلفه بالإشراف على تعبئة القمح في الخزانات وأترك من يراقبه. في ذلك الوقت نحن سنتحرك..

- ألن يتعجب من تكليفه بهذا أليس واضحًا أنه أبله؟!

- لا.. فهو أمامي يظهر أن لديه قليلًا من العقل سأعامله على حسب ذلك العقل الصغير.

- يا لروعة أفكارك.

- عليك أن تتعلم مني..

- الغرور لا يناسبك ثم أني أذكى منك.

- عادي كنت أمزح فقط فأنت مستشاري الذكي دائمًا.

- لا يا (فياض) أنت متعلم وأنا لم أعرف شيئا سوى فضاء هذه العزلة، ولم أتجاوزها.

- لا.. أنت فطن جدًّا يا (سيف)، ذكي ورائع وتملك أشياء تأتي بالفطرة ليس من المدرس.

- سأغتر لهذا المديح الذي ليس سوى تخفيف لحزني وألمي.

- لا ليس تهوين لك هي حقيقة. أعدك بأن أعلمك في المدينة..

- متى؟ عندما ينهق حمار البحر؟!
- هههههه هههههه لا لا..
- متى إذن؟ عندما تتزوج، صحيح؟
- ولماذا أنت متأكد هكذا؟
- ستأتي زوجتك لتهتم بأمورك وأنا أذهب.. يوجد هناك مشكلة.
- ما هي؟
- متى سوف تتزوج؟
- عندما تترك صانعة (البخور) مهنتها أو عندما ينهق حمار البحر..
- هههههه.
- لقد تأخر الوقت دعنا ننمْ.
- نعم..
- طابت ليلتك.

(الطريق الغربية لجبل إبراهيم)

تبدأ من سطح جبل (إبراهيم) تتجه شرقًا مسافة نصف ساعة في طريق وعرةً ضيقة، نحتت في هاوية الجبل، ثم تنعطف جهة الشمال مسافة ربع ساعة، وبعدها تتجه الطريق إلى أسفل وتؤدي إلى وسط غابة تسمى غابة (رماح)، يلتصق بجبل (إبراهيم) من جهة الشرق جبل (الحمى) ومن جهة الغرب جبل (إلياس) وجبل (إبراهيم) أصغرها.

غابة (رماح) غابة كثيفة تغطيها أشجار (الطلح) العملاقة، يسكنها كل أنواع الحيوانات المتوحشة والمفترسة وأنواع مختلفة من الطيور، مساحتها كبيرة جدًّا، تأخذ زاوية (عزلة ردهان) تحدها من اليمين تلة صغيرة تحول بين الغابة وبين القرى الموجودة في العزلة، لها طريق واحد يتجه من الغابة إلى القرى يمر من جانب تلك التلة لم يعبر أحد هذا الطريق أو يتجرأ دخول الغابة.

وقد تناولت الأخبار حكاية أنه يسكن تلك الغابة وحش كاسر يفترس كل من يدخل الغابة وإذا ما هربت عنزة وحطت رجلها تحت أول شجرة طلح في أحد أطراف الغابة لا يفكر أحد باللحاق بل يتركها ويرجع.

ذلك الوحش الكاسر لم يسبق لأحد أن رآه، واستدلوا على وجوده بتلك الصرخات التي يطلقها من وقت لآخر تنقلها الذُّرى والجبال لتُطوق القرى كلها، ويُصاب أهلها بالذعر منها.

وظلت (غابة رماح) يحجبها ظل الأساطير والخرافات، فإحدى العجائز الهرمة تقول إنه قد سكن بتلك الغابة جماعة من الجن مستدلة على قولها بذلك الدخان الذي يصعد من وسط (غابة رماح) بلا انقطاع وأنه قد أخبرها والدها بذلك.

وأخرى تقول إنه وحش غريب احتل تلك الساحة منذ قديم الزمان.

وتأتي ثالثة تنفي قولهما.

كانت كلها روايات لا أحد يعلم حقيقتها ومدى صحتها، لا أحد من رعاة الأغنام يتوجه نحوها أو يصعد التلة المجاورة للغابة لا ليلًا ولا نهارًا ولا أحد يستطيع أو يتجرأ على قطع الأشجار للتحطيب.

(رؤيا)

قرية (نجد) هي القرية الأقرب إلى الدار أول كوخ فيها هو لأسرة (نبأ) وثاني كوخ لأسرة تتكون من أب طيب صالح شاحب الوجه ذابل العينين قد تقدم به السن، وزوجته امرأة تشتهر بطيبتها وكرمها، لم يكن لهما سوى فتاتين شابتين راتعتين، هما أجمل من في العزلة، الكبرى اسمها (رحيل) تهتم بشؤون البيت وتساعد أمها الكبيرة في السن ووالدها بأعمال الحقل، والصغرى (جوارح) ترعى الأغنام وتساعد والدها في أعمال الحقل.

الوالد يهتم بالأرض وبالمحاصيل يذهب فجرا ويعود ليلًا ويرتمي على فراشه بعد أن يكون قد اطمأن على وضع أبقاره وأغنامه ليذهب بعدها في سبات عميق من شدة الإرهاق، والتعب وفي إحدى الليالي رأى الوالد في منامه أنه في زاوية الوادي وفي الحقل الصغير المقابل لكوخه، أن هناك عين ماء غزيرة، ماء صافي نقي يسكب بلا انقطاع اقترب وشرب من تلك العين فبترت إحدى أصابع يده وسال دمه وحزن على خنصره الذي بتر حزنًا شديدًا، ونهض مفزوعًا خائفًا يرتجف، ولم يعد إليه نومه وظلت عيناه مشدودتين يفكر بأمر تلك العين ولماذا بُترت إحدى أصابعه (الخنصر).

أتى الصباح وذهب إلى عمله لم يخبر أحدًا بما رأى في منامه، ينتظر ماذا عساه أن يحصل عند عودته في المساء، يصل من الحقل إلى كوخه وإذا بصراخ يملأ كوخه..

الصغير يسأل:

- ماذا هناك؟

أخبرته إحداهن أن (رحيل) قد توفيت.

انهمرت دموعه ولم يصدق الخبر، ذهب فوجدها ممددةً مغمضة عينيها ساكنة لا حراك لها، حاول معرفة السبب؛ سأل وكرر سؤاله وأخيرًا ردت عليه أختها (جوارح) بلهجة هادئة وحزينة:

- لقد تعرضت للدغة في كتفها الأيسر، لا ندري شيئًا ولا ما هو الذي لدغها.

لم يسمع الوالد الإجابة بالرغم من إلحاحه وسؤاله فمصيبته كبيرة وحزنه عميق.

مضت الأيام سريعًا ولا يزال الحزن مخيمًا في سماء ذلك الكوخ الصغير، أدرك الوالد أخيرًا بأن عين الماء تلك حقيقة موجودة إلا أن أصبعه هي (رحيل) ابنته التي توفيت وأن عين الماء بدلًا عن ابنته، بعد فترة ذهب الوالد وحفر البئر كانت بئرا سطحية حفرها وقام ببناء جوانبها وأصبح أهالي القرية يشربون منها ولأنها كانت بديلة عن (رحيل) فقد أسماها (بئر رحيل) وظل الناس يتداولون هذا الاسم وعُرفت به.

(كحل الصدى)

قرية (نجد) تميزت بصناعة أفضل وأجود أنواع الكحل، كانت والدة (جوارح) هي من تصنعه. طريقة عمله تبدأ من ذبح أحد الخراف، ويؤخذ ذيل الخروف العريض الدهني ذلك ويتم إبعاد الجلد المليء بالصوف ، ويتم تقطيع قطعة الشحم تلك إلى قطع صغيره ووضعها في إناء ثم توضع على النار مع تحريك تلك القطع باستمرار ومع التحريك تخرج القطع الدهنية تلك زيتًا وتتحول تلك القطع إلى قطع جافة حمراء لذيذة الطعم، وبعد أن تصبح خالية من الزيت يتم وضع تلك القطع في إناء، أما الزيت فيتم وضعه في إناء خاص يخصص منه جزء لرش الخبز الأسمر وتناوله، والجزء الآخر يتم وضعه داخل وعاء أسطواني معدني بداخله فتيلة قطينة، ثم إشعالها وتغطية تلك النار بوعاء محكم حتى يحترق كامل ذلك الزيت ثم يؤخذ ذلك الوعاء الذي قد علق به دخان الزيت المحترق الذي قد تجمع بشكل طبقات سوداء ، ويتم إزالته إلى إناء خاص نظيف ثم يضاف إليه قليل من زيت الزيتون ويُحرَّك بحيث يكون عجينة قاسية، وتجري عملية التحضير تلك في أكواخ ذات حرارة معلومة ورطوبة معلومة. كانت صناعته تتم في أثناء الغروب وعدم إكثار إحدى الكميات وإلا فقد الكحل رونقه وجماله.

كانت (جوارح) تصنع كحلها بيدها، كانت تضع فيه لمستها الخاصة فكانت تضيف إليه مواد أخرى فكان ذلك الكحل يظل لونه براقًا ولامعًا، وكلما مضى عليه يوم ازداد سوادا ولمعانا ولا يزول من الماء أو يتشقق يظل متماسكا.

وأيضا كانت تلك الخلطة (خلطة الكحل) لا يضاف إليها الملح أبدا لكي لا تسبب حرقة للعين أو ضررا، وكانت لذلك الكحل ميزةٌ وصناعة تفردت بها والدة (جوارح) إلا أن ما تصنعه كان متفردا وبشكل رائع ولم تكن تصنعه إلا لنفسها فقط.

(جوارح)

كان صباحا ممطرا، وعلى (فياض) و(سيف) المرور بقرية (نجد) لأخذ المواشي منها وإرسالها إلى سوق المدينة، ثم المرور بالقرى الأخرى ليتم إرسال مواشيها إلى الدار، ليتم ذبحها.

لقد انتظرا حتى توقف المطر ثم انطلقا فمرا بجميع الأكواخ ولم يبقَ سوى كوخ (والد جوارح) وأسرة (نبأ). على (فياض) المرور بأحدهما وكذلك (سيف) عليه المرور بالآخر ليريا ما إذا كان عند هاتين الأسرتين مواشي أغنام أو خرفان أو غيرها تصلح للذبح أو البيع يتم اختيارها، وأصّر الحراس المرافقون لهما بأخذها.

مر (سيف) على كوخ أسرة (نبأ) ومر فياض على كوخ الحاج (محمد) (والد جوارح).. (سيف) لم يلحق بالأغنام أو الخراف فقد توجهت إلى المرعى، أما (فياض) فلا يزال ينتظر أمام الكوخ ولم يخرج أحدهم من الكوخ (فالحاج محمد) قد توجه إلى الأرض مع الثيران وزوجته ذهبت لتجلب الماء من بئر (رحيل)، ظلت (جوارح) بداخل الكوخ محتارة بين الخروج ومقابلة ابن (صاحب الدار) لإعطائه المواشي أو انتظار أمها لكنها قد تأخرت كثيرا.

(جوارح) لم تكلم أحدا من قبل لا حارسا ولا واليا، أخيرا قررت الخروج فخرجت إليه وقالت بصوت خجول وعيناها تنظر إلى الأرض:

- اتبعني يا سيدي من فضلك لأفتح لك حوش المواشي.

فتحت له حوش المواشي لكي يختار منها ما يشاء وعادت إلى داخل الكوخ لكنه متجمد واقف بمكانه.. مندهش ينظر ويحدق بها وبلا خجل ليصل في تلك اللحظة (سيف).

- سيدي.. سيدي..

وصرخ: سيدي ما بك؟

رد (فياض):

- ولماذا تصرخ.. هاه لمَ؟

- آسف سيدي؟

- ماذا هناك؟

- لا شيء سوى أن الأغنام قد توجهت إلى المرعى ولم ألحق بها. سيدي ألا توجد أغنام هنا أيضا؟ هل تأخرنا؟

- لا.. لا.. يوجد.

دخلا وأخذا المواشي وذهبا.

كانت (جوارح) تجلس في زاوية الكوخ حتى انصرفا.

عاد إلى الدار لكن (فياض) قد ألجم لسانه؛ فقد أعجب (بجوارح) سارحا لم يتفوه حتى بكلمة.. لقد كانت أجمل فتاة في تلك العزلة، كان لها أنف بارز كحد السيف وبشرة بيضاء ولها وجنتان متوردتان، وعين متسعة سوداء

أحيط بها كحل براق، ذات شعر أحمر طويل وغزير مسترسل تجاوز ذلك الغطاء الوردي الذي تضعه على رأسها، لها قامة طويلة ممشوقة رائعة ومتميزة، فمها صغير وشفاهها وردية ابتسامتها حلوة، ونظرتها خجول كانت بشوشا رزينة تدرك معنى الحياة وأبعادها فطنة لبقة جيدة الحديث والسبك ذات أخلاق عالية، صاحبة قدر عالٍ من الأدب والاحترام، ترتدي فستانا ذا لون بنفسجي داكن طويلا، وحزاما تضعه على خصرها الضامر.

كان ذلك الحزام قد حاكته لها والدتها ووضعت فيه ثلاث وردات بيضاء وسوداء تتوسطها وردة كبيرة حمراء كزهرة شقائق النعمان، كان الحزام يصل بين تلك الورود الملتف على خصرها وذلك الرداء الوردي الشفاف الذي تغطى به رأسها، تقوم بلفه حول رأسها عدة مرات، لقد كان فستانها الطويل رائعا بأكمامه الطويلة المزركشة بخيوط الستان ذوات اللون الأسود وضفيرة شعرها المتدلية على ظهرها بلمعانها وجمالها.

كانت لها قبعة تضعها على رأسها عند خروجها إلى المراعي صنعها لها والدها من سعف النخلة المجاورة للكوخ، وتم تغليفها من خارجها بقماش أبيض لكي يكون عاكسا لأشعة الشمس.

ها هي الساعة الثامنة والنصف صباحا والجو صافٍ وممتعٌ والهواء نقي بعد المطر، وجميع الراعيات قد اجتمعت تحت شجرة السدر القريبة من القرية ينتظرن قدوم (جوارح) ليتوجهن معا إلى المراعي، وفي طريقهن التقين بابن (صاحب الدار) (فياض) في الطريق مع (سيف) مرافقه الخاص وبقية الحرس، وقد لاحظت الرويعيات (فياض) ونظرته إلى (جوارح) ورمقه لعينها الصافية كصفحة البحر فواصلنَ مسيرهن، وكل مرة تحدث المصادفات في

الطريق وأصبحت الرويعيات لديهن الكثير من الكلام في حلوقهن وحناجرهن وما كانت إحداهن تود الحديث حتى ترمقها (جوارح) بنظرة تعمل على إسكاتها، وما إن يبتعدن عنها حتى يتهامسن عن ابن (صاحب الدار) وجماله ونظرته التي ينظرها إلى (جوارح) المليئة بالمشاعر كلما التقين به، لكنّهن يعلمن أن (جوارح) تكنّ مشاعر الحقد والبغض للدار ومن فيها كارهة لهم ولظلمهم وجبروتهم.

كانت تلك الراعيات يحاولن إقناعها بأنه مختلف عن أهل الدار، وأنه دائما يقف بجانب المواطنين يدافع عنهم ويطالب بحقوقهم، لكن عبثا، كانت تصرخ في وجوههن وتسكت كل من تفتح هذا الموضوع، وكانت حادة في ذلك.

(فياض) منذ اليوم الذي رأى فيه (جوارح) ووقع في حبها كان يحاول جاهدا إخفاء تلك المشاعر لكنها كانت تكبر وتزداد يوما بعد يوم، فقد ظهرت وبانت على ملامحه.

ها هي هذه الليلة باردة جدّا والنجوم تتلألأ في السماء والقمر بنصف الشهر يتوسط السماء، (فياض) و (سيف) في غرفة سيف يتحدثان كالعادة، (فياض) يقعد قعدته المعتادة على النافذة الصغيرة سارحا في السماء، مضت أيام وهو على هذه الحالة والصمت المطبق، وفي كل يوم يدخل الغرفة يفتح النافذة ويجلس جلسته تلك، وهذه الليلة ذهب (سيف) وفتح النافذة الأخرى وصمت قليلا ثم قال:

-لقد وقعت في حبها يا سيدي.

-من هي؟

- ابنة صاحب الرجل القصيرة.

أدار وجهه بسرعة وقال بدهشة:

- وهل رجله قصيرة؟!

-هههه.. نعم.. ما بك يا سيدي؟ بالتأكيد لن تكون مثل أبيها!

-لا ليس هذا إنني مندهش من أنني التقيت به عدة مرات ولم ألاحظ شيئا.

-لا عليك يا سيدي فعقلك ليس معك حتى إن مت أنا لن تلاحظ اختفائي.

-هههه لا إن مت سألاحظ، ليس إلى هذه الدرجة.

عاد سيف ينظر إلى السماء، وقال لفياض:

-لقد وقعت منذ ذلك اليوم الماطر عندما ذهبنا نجمع المواشي وكنت واقفا وقد أصبت بالدهشة من جمالها،

ثم صاح بصوت مرتفع

-أخيرا.. وقعتَ يا سيدي لا وبمن..؟ بإحدى الفتيات الفقيرة كما تقول الحكاية!

تكلم فياض وملامحه تتهلهل فرحا مبتسما وقال:

-نعم وقعت بسحر عينيها منذ تلك اللحظة ولم يفارقني خيالها ولو للحظة واحدة.. إنها جميلة.. خجول..

رد عليه (سيف):

- نعم سيدي إنها كذلك إضافة الى أن لديها أخلاقا حميدة وصفاتٍ رائعة.

-وما أدراك بكل هذا؟

-هي جارتي يا سيدي وأيضا.. فتنهد وصمت.

قال (فياض): أيضا ماذا؟!

لم يتكلم (سيف) وظل صامتا لكن كانت تظهر عليه ملامح الحزن الكئيبة قليلا، ثم قال:

- كان لها أخت تدعى (رحيل) لقد كنت معجبا بها لقد كانت.. ولم يستطع الإكمال أبدا.

-كانت..؟ لمَ تقول كانت؟ أين هي؟

-ماتت. قالها بعيون تسيل دمعا حارّا وحيرة لا توصف!

-حقّا؟!! لماذا لم تخبرني بذلك يا (سيف)؟ نحن كالإخوة ولم تخبرني لم؟ ونحن موجودون مع بعض منذ الطفولة متى حصل هذا؟

-عندما كانت أنت بالمدينة تدرس الجامعة، وعندما عدت لم أرغب بإخبارك حينها لم يكن بهم.

-لم لم تشاركني حزنك؟

-لا عليك يا سيدي أمر وانتهى دعنا من هذا الآن!

-كما تشاء يا (سيف)!

حاول (سيف) أن يقترض من داخله ابتسامة، وقال:

- هل يرضى سيدي (صاحب الدار) بأن تتزوج من (جوارح)؟

-لا أعلم!

-أظنه سوف يرفض أن تتزوج من إحدى بنات المواطنين..

-حتى أنا أظن ذلك..

-وماذا سوف تعمل؟

-إني أحاول أن أجد طريقة ما.

-ومتى تنوي فتح الموضوع لسيدي (صاحب الدار)؟

-لا.. ليس الآن!

-أظن أن عليك الإسراع يا سيدي..

-ولماذا؟

-لأنك سوف تموت يا سيدي فحالتك مشفقة جدّا..

-هههه..

-هههههههههه..

مضت أيام وأسابيع وشهور وبات واضحا ومعروفا لدى الجميع بأن (فياض) ابن (صاحب الدار) يحبها وقد ظل يراقبها. كل يوم يستيقظ الساعة الخامسة صباحا ويصعد إلى سطح الدار ويجلس في الزاوية الجنوبية المطلة على قرية (نجد)، ويظل ينتظر حتى تخرج من الكوخ، بعدها تذهب لتحلب الأغنام وتعود لتجهز وجبة الفطور لوالديها، وتتناوله معهما، ثم تقوم بسحق أعواد الكركديه الصفراء على تلك الصخرة الصغيرة الدائرية الشكل الموجودة في زاوية الحوش حتى تصبح ناعمة ثم تأخذ المسحوق وتضعه براحة يدها وتحلب إحدى الأغنام وتضيفه إلى ذلك المسحوق وتخلطهما معه، ثم تضعه على وجهها كاملا ولا تترك إلا حاجبيها الرفيعين وعينيها الساحرتين المكتحلة. كان ذلك الخليط هو قناعا يقيها من حرارة الشمس ولا يتأثر وجهها، ثم تذهب وتأخذ قبعتها المعلقة على النخلة وتضعها على رأسها وتأخذ وعاء

الماء والمتاع، ثم تفتح بوابة الحوش وتخرج الأغنام وتذهب لتلحق برفيقاتها الراعيات حتى يكتمل العدد وينطلقن إلى المراعي جميعا، يظل يراقبها حتى تختفي قبعتها البيضاء في المراعي البعيدة خلف الروابي ويذهب إلى عمله حتى الساعة الخامسة عصرا ويعود إلى تلك الزاوية ويجلس؛ فهو وقت عودتها لتدخل الأغنام حوشها وتضع قبعتها ثم تذهب لتناول وجبة العشاء مع والديها.

عندها نزل (فياض) من أعلى سطح (الدار) واتخذ قراره، وذهب إلى والده في المنظرة، وأخبره بأنه يريد التقدم لخطبة (جوارح) وقد كانت هذه هي المرة السابعة من محاولاته مع والده، لقد كان والده يعلم بكل شيء، فلا يخفى عليه أي أمر في العزلة بأكملها صغيرا أو كبيرا كان..

كلمه (فياض) توسل إليه وتودد لكنه لم يرد عليه، ثم نظر إليه وقال بلهجة استهزاء:

- أنت لا تأتي إلا بالمصائب وفي كل مرة يكبر حجم المصيبة أكثر، لا تأتي إلا بما يوقع روؤسنا في الأرض لا أعلم لماذا أنت هكذا مختلف عن بقية إخوتك!

- يا أبي ماذا فعلت؟

- ماذا فعلت، ولك عينٌ أن تسأل أيضا تريد الزواج من ابنة صاحب الرجل القصيرة الفقير اللعين ذاك؟!

- وهل الفقر عيب يا أبي؟

- نعم التفكير بإحدى فتيات العزلة عيبٌ، هن لسن من مستواك أنت ابن (صاحب الدار) أنت يناسبك ابنة أحد التجار الكبار سأخطب لك قريبا ابنة أحد أصدقائي..

- أبي الفقر ليس عيبا وأيضا هم فقراء لأننا نأخذ منهم كل شيء نحن أغنياء من أموالهم، ونكبر بخدمتهم إننا نسرق أموالهم، ونستنفد طاقتهم ومجهودهم وتعبهم نحن ظالمون يا أبي.

- هيا اخرج.. اخرج أنت أحمق وستظل هكذا..

- أبي لا أريد أحدا غيرها ولا يهمني فقرها يا أبي هذا منطقي ولن أغيره أبدا.

- قلت لك انصرف.. انصرف..

انصرف (فياض) متحسرا وكئيبا.

(وداع أخير)

عند غروب شمس آخر يوم من شوال (فياض) كعادته يجلس في الزاوية الجنوبية لسطح الدار وهناك اجتماع مصغرا أعضاؤه (نصر) و(شاكر) يرأسه (صاحب الدار).

بدأ الاجتماع الواشي الكذاب (نصر) بمقدمة تملؤها عبارات الخوف على سمعة (صاحب الدار) ومكانته وأنه حزين بأنه يقف مكتوف الأيدي وهو ينظر إلى (فياض) يقع في حب فتاة جاهلة وأنه يريد الإذن من سيده بالتصرف قائلا:

- سيدي لقد شاع في العزلة بأكملها بأن (فياض) أصلحه الله قد وقع في حب تلك القروية الجاهلة، وأصبح غارقا في بحر حبها لم يعد ينتبه لأعماله ولا يشرف على العمال يترك مرافقه (سيف) للقيام بكل ذلك. أود التصرف.. سيدي (صاحب الدار) ائذن لي بذلك..

نطق المتملق (شاكر):

- أبي لنزوجه فتاة من المدينة إذا تزوج سوف ينسى أمر هذه الفتاة.

رد (صاحب الدار) وبعزم:

- الليلة علينا التخلص من القروية تلك وبعد الغد سيقام حفل زواجه. والدته قد خطبت له إحدى الفتيات ابنة خالته من المدينة.

- أبي وما عجلة زواجه إن تخلصنا من القروية نتركه فترة من الزمن، ثم نعرض عليه الفكرة.

وافقه الرأي (نصر) أيضا.

(صاحب الدار): ليكن ذلك.

قال (نصر) بلهجة مستبشرة: ماذا نفعل يا سيدي؟

أجاب (صاحب الدار) بمكر وحيلة: سمعت أن والدها لديه بئر (رحيل)؟

(شاكر) فهم قصد والده فقال: أبي سمعت أن أهل القرية يحبونها فلها أخلاق حميدة سيحزنون لأجلها

رد (صاحب الدار) بثقة كبيرة: الحزن يولد العبرة.

- أبي أخاف إن حزنوا خرجوا عن..

قاطعه والده بصوت مرتفع وغاضب: لا أحد يجرؤ على ذلك.

- كما ترى يا أبي.

ابتهج (نصر): حاضر سيدي اترك لي المهمة.

(سيف) كان صاعدا إلى سطح الدار إلى (فياض) فاختبأ في منعطف الدرج سمع كل شيءٍ وبعدها تسلل إلى السطح مقلوب الوجه مصفر الملامح. لم ينتبه (فياض) لحضوره، فقد وصلت (جوارح) حينها مع أغنامها، دقائق ويجلس بجواره (شاكر) يقول بابتسامة صفراء: هل تراقبها؟

انتبه (فياض) لوجوده ورد بلهجة يملؤها الفرح والخجل وطيب النوايا:

- نعم..

هز (شاكر) بكتف أخيه وقال:

- أحسنت الاختيار..

ثم وقف وذهب (سيف) يقف هناك بالزاوية المقابلة يسمع كل شيء حائرا لا يدري ماذا يعمل ولا ما يجب عليه أن يتصرف.. عليه إيصال الخبر لأسرة الحاج (محمد) ليهرب سريعا.

تحرك ونزل الدرجات بسرعة وذهب ليبحث عن (نبأ) فلا يوجد أحد يستطيع إيصال الخبر غيرها؛ فهي لا يشك بها أحد وليست مراقبة، ذهب إليها وأخبرها بالأمر وأكد عليها بأن تحذرهم وأن يكون الأمر في سرية تامة، فهمت الأمر وذهبت على الفور إلى (زوجة صاحب الدار) تستأذنها بالعودة إلى الكوخ كعادتها كل ليلة. إلا أنها رأت سيدتها تصرخ بصوت عال: أين (نبأ) هيا اذهبوا وأتو بها..

أجابت خائفة جدّا: ها أنا ذا سيدتي ماذا هناك؟

- عليك تجهيز أغراضي للسفر الآن هيا أسرعي..

- لماذا سيدتي هل أنتِ مسافرة؟

- نعم..

- إلى أين؟

- إلى المدينة هلا توقفتِ عن الأسئلة هذه، وبدأت العمل؟ والدتي مريضة جدّا.

- حاضر سيدتي..

- متى ستسافرين سيدتي؟

- الآن..

- جهزي نفسك أنت أيضا ستأتين معي.

- أسافر معكِ؟ لماذا؟

- وهل سوف ترفضين؟ هل تجرؤين على ذلك؟

- المعذرة يا سيدتي لكن والدي لا يعلم وأنا لم أسافر معك من قبل..

- ولماذا؟ أنت خادمتي أيتها البلهاء أنت سترافقينني.

- لماذا لا تأخذي إحدى زوجات..؟

قاطعتها بصوت عالٍ:

- اصمتي كفى أسئلة.

انتهت (نبأ) من تجهيز حقائب السفر وذهب (فاروق) لتجهيز وإحضار السيارة فهو سوف يأخذهما إلى المدينة لأنه لا أحد من إخوته في المنزل سوى (فياض) وليس لديه سيارة فقد أخذها منه والده (صاحب الدار) قبل شهور، حاول (فاروق) تشغيل السيارة إلا أنها لم تشتغل يبدو أنها تعطلت ووصلت أمه تقول بغضب شديد:

- ألم تجهز السيارة بعد؟!

رد وبتضجر :

- لقد تعطلت يا أمي.

صاحت في وجهه:

- تعطلت ومتى سوف تصلحها؟ علينا السفر حالا.

- سأقوم بإصلاحها حالا.

- هيا أسرع..

مضى وقت طويل وهو يحاول إصلاحها لكن لا جدوى، حينها صعدت والدته إلى غرفتها تسب وتلعن حظها العاثر. أتى الصباح وزوجة (صاحب الدار) لم تسافر و(نبأ) بجوارها ينتظران بأي لحظة يمكن أن تصلح السيارة، أتى الصباح، ولم تصلح وفي الصباح أتى (شاكر) وأخذهما بسيارته وذهب.

(عودة)

مضت سنتان على مغادرة ذلك الشاب الذي كان دائما نشيطا يبتسم ذكيا سريع البديهة يعرفه ويحبه كل أهل القرى ويكنون له كل الاحترام والتقدير، ذلك الذي يدعى (عبد الله) بعدما ضاقت به الأرض بما رحبت، وغادر الجبل وذهب متخفيا إلى المدينة، هناك درس وتعلم والتحق بالجامعة في قسم العلوم الشرعية، وتخرج منها وحضر دراسته العليا ليعود ويقدم ملفه إلى مكتب الأوقاف والإرشاد في المحافظة بأن يتم توظيفه وتعيينه إماما وخطيبا في مسجد (الدار) في العزلة، وعاد داخل العزلة، لكن ليس مختبئا كما خرج منها، إنما عاد بسيارة فخمة ولم يستطيع حراس العزلة منعه كونه أحد أبناء العزلة، ومر من جانب الحقول وظل الأهالي يتساءلون: لمن هذه السيارة؟ ويشيرون إليها بالبنان وظنوا أنه زائر (صاحب الدار) أو أن أحد أبنائه قد أبدل سيارته.

أوقف سيارته أسفل الجبل ولم يجد كوخ الجد (علي) فقد توفي منذ سنة وانهدم كوخه.

صعد الجبل بلهفة وشوق وصل إلى جوار قبر والديه وجلس على الأرض وأخذ يقرأ الفاتحة بعيون تملؤها الدموع المتساقطة.

نهض وذهب ثم جلس داخل الكهف الذي تركه منذ سنوات، ها هو يراه اليوم مهجورا مليئا برائحة اللا حياة وعدم الأنس وعين الماء التي كانوا يشربون منها قد غطاها التراب وامتلأت بالأحجار، فلم يعد يرى منها سوى الأتربة

المبللة، خلع جاكته من على ظهره وهو جاكت يشبه جاكت أبناء الدار ووضعه تحت رأسه ونام حتى الساعة الثالثة عصرا، ونزل من أعلى الجبل ليستقبله الحراس الذين أرسلهم (نصر) وأخذه إلى هناك.

رأى (صاحب الدار) وهو ينظر إليه ببغض شديد وسأله:

- هل أنت من المدينة؟

- لا لست من المدينة أنا من هنا.

- من أين؟

- أنا (عبد الله) كنت أسكن الجبل.

- هل هو أنت؟! ظننا أنك اعتزلت في الجبل.

- لا بل سافرت ودرست في المدينة.

- تعلمت ماذا؟

- لقد دخلت قسم الدراسات الإسلامية ولقد تم توظيفي هنا في العزلة.

صمت ثم قال:

- تم توظيفك ماذا؟

- خطيبا وإماما لجامع الدار.

- خطيب!!

رد عليه بوقار:

- نعم

نطق (نصر): من وظفك؟

- المحافظ.

ما إن ذكر اسم المحافظ حتى تغيرت ملامحهم وقال (صاحب الدار) محاولا مسك أعصابه:

- المحافظ، هذا جيد! تستطيع أن تبدأ بعملك.

رد وبجدية وثقة:

- سأبدأ من اليوم.

انصرف فقال (نصر):

- سيدي ماذا سنعمل؟

- سنراقب ونرى.

- سيدي علينا معرفة الخطوة القادمة للمحافظ.

- نعم علينا الانتباه والتصرف بوقتها.

- نعم سيدي..

لقد عاد (عبد الله) وقورا وعالما عذب الحديث حسن المعاشرة، قام بتدريس أطفال القرى الحروف الهجائية في الصباح والمساء يدرس القرآن الكريم لمن قد أصبحوا جيدين في القراءة والنطق، ثم أضاف درس الحديث النبوي، لقد كان خطيب الجامع السابق قد بدأ بتدريس الأطفال لكن (صاحب الدار) منعه من ذلك، فتوفقت حينها. وها هو (عبد الله) يستأنف التدريس ودون أن يأخذ إذن (صاحب الدار) وذلك أمر خطير، كانت كل تصرفاته تحت مجهر المراقبة.. مضت الأيام وتوالت، وبدأ بتنفيذ خطوة جديدة كان معدا لها من قبل.

بدأ التحرك في القرى وعقد اجتماعات مصغرة للمواطنين يوجه لهم خطابات مضمونها أنهم ليسوا عبيدا لأحد، وليسوا مضطرين أن يدفعوا أموالهم ومواشيهم وكل ما يملكون لـ(صاحب الدار) وهي لهم فهم أحق بها وأنهم يعيشون في ظلام المستبد وأن عليهم الاستيقاظ من سبات الخوف والذل وعليهم المواجهة والدفاع عن حقوقهم وكرامتهم.

لم تكن تلك الخطابات تؤثر في المواطنين لأول وهلة إلا أن التكرار والمحاولات المتكررة أجدت نفعا، وبدأ الناس تدريجيا، أحدهم يرفض إعطاء مواشيه لحراس الدار والآخر يأخذ القمح إلى كوخه بدلا من أخذه الى التلة الصخرية، وذاك يقطف الثمار من أرضه ويعود بها إلى كوخه ولا يأخذها إلى مخزن الفواكه حتى تأتي الشاحنات لأخذها، فشعر (عبد الله) حينها بفرحة كبيرة رأى أن خطاباته أجدت نفعا مؤخرا.

كان (عبد الله) يتعرض للضرب من قبل حرس (صاحب الدار) إلا أنه كان يمتلك روحا وشخصية عنيدة تأبى الرضوخ للظلم والذل والهوان، وبعد كل تعذيبه ذاك يستأنف المسير ويقطع شوطا جديدا من التحريض والنداء والمطالبة ومحاولات ردع الظلم في دربه الطويل، يحدوه الأمل وتدفعه أشواق الخلاص إلى المضي قدما نحو غايته لا يهاب الموت بل يستقبله بشجاعة وهدوء وكأنه مجرد نسمة رقيقة تلمس جبينه.

كان المواطنون يعلمون بما يحدث له من تعذيب وضرب مبرح ويصابون باليأس والإحباط ويتراجعون لكن ما إن يروه يعود ثائرا بقوة ونشاط وحيوية حتى يعودوا ويواجهوا معه.

كانت كل الطرق والوسائل التي استخدمها (صاحب الدار) وأعوانه قد سقطت أمام ذلك الطموح العارم، ازداد عدد الثوار وكل مرة تزداد خطابات (عبد الله) ونداءاته حدة وبلاغة وكانت كلماته وحماسه الملتهب يرفعان معنوياته بشكل كبير.

وها هو اليوم يجتمع بمواطني القرى الذين تم قمعهم وتعذيبهم وجلدهم قائلا: (إن دم الثائرين لن يضيع هدرا في التراب وكان يقصد الذين ماتوا منهم إن هذه الدماء ستتحول إلى إشعاع يضيء قلب الظلام ويهدي الثائرين إلى طريق هدفهم المنشود، علينا أن نزيح عنا ظلام اليأس الذي يخيم بالقلوب علينا إخراج أملنا المعقود في داخلنا وتحويله إلى خطوات على الأرض ويظل أملنا معقودا بالله ثم بنا نحن الثائرين، علينا أن نناضل لتحرير هذه العزلة، ستظل دماء شهدائنا نورا عامرا سيبدد ظلامنا الكئيب.. وينفذ عبر هذه الحواجز.. ويعمر القلوب والحياة جميعا).

ازداد المواطنون من هذا الخطاب قوة وثقة جديدة وأملا وإيمانا.

وصل خبر هذا الخطاب إلى (صاحب الدار) فكان التحرك السريع فتم أخذهم وإخفاؤهم وسجنهم في الطابق السفلي للدار تعرضوا فيها للضرب والتعذيب لمدة ثلاثة أشهر وفي الخارج كان هناك تجمعات للمواطنين وإضرابات عن العمل ومواجهات مع الحراس فكان مصيرهم كمن سبقهم السجن والتعذيب هدأت الفوضى بالخارج فلم يبق سوى القليل من المستضعفين ممن يعملون بجد واجتهاد مذعنين ومستسلمين طيلة تلك الثلاثة الأشهر.

ازداد التعذيب والضرب ومنع الطعام وبعدها أتى أمر إخراجهم ومراقبتهم بعد خروجهم وفي اليوم التالي اجتمعوا وبرئاسة الثائر (عبد الله) وقد ازدادوا عزما ليكون الخطاب هذه المرة أقوى بكثير من السابق، والكل في شوق لسماعه ومستعدون للتحرك والعمل كالسابق وأفضل..

صعد (عبد الله).. كان في حياته العادية إنسانا وديعا رقيق الجانب بل إنه خجل في بعض الأحيان لكن صعد ليلقي الخطاب امتد بصره إلى المستقبل ليرى الآمال المعقودة وقد تحققت وألقى خطابه بشجاعة كبيرة، وبدأ قائلا: إلى تلك النجوم المضيئة التي تحارب ظلام الاستبداد في كل القرى لتعرف سنة الله تقضي بأن الليل يتبعه فجر ينير الآفاق وشمس تبث الحياة في أرجاء الكون عليكم المكافحة والوقوف ضد هذا الظلم والاستبداد من أجل حقوقكم وكرامتكم مهما لحقكم من الأذى والافتراء وأصابتكم قوى الشر القاتلة بسمومها، ومهما تألمتم وحزنتم، أنتم موعودون بالنصر والحرية والتخلص من القيود وظل ينادي ويصرخ.. يشجع ويدعم ويحث حتى وصل (نصر) وأخذه إلى السجن ليكون السجن مؤبدا هذه المرة، ليصمد بعدها في وجه الظلم كبرياء فلاحة منهكة أبت الرضوخ وراحت بمحراثها القديم تزرع التحدي والصمود في عيون صغارها..

(تنفيذ)

توالت الأيام وانقضت الشهور و(فياض) على تلك الحالة يظل يراقب (جوارح) كل يوم، ويذهب إلى والديها في الكوخ ويجلس معهما يكلمهما ويتحدث إليهما بتواضع وأدب وهذه هي أخلاقه المعروفة لدى الجميع، لقد أحبه والداها كثيرا ودائما يمدحان (فياض) أمام ابنتها ويثنيان عليه إلا أنها لم تبال لكل ما يقولانه عنه ولم تأبه به، وكم تصادفه في الطريق من مرات ولم تمنحه نظرة واحدة، أما هو فقد كان صادقا في أحاسيسه ومشاعره تجاهها، لذا كان يمسي ليله شاكيا متوجعا مما يلاقي منها من إعراض وجفاء شامت، ثقيل الظل وتجاهل واضح لا سبب ظاهر له سوى أنه من مواليد تلك الدار.

لقد كان صديقه دائما يقول له:

- إنك تعلق نفسك بحبال واهية.

- ولماذا تقول ذلك؟

- سيدي مضت سنة وأنت تحبها بجنون علمت العزلة بأكملها بقصتك لكنها لم تأبه بك، هي لم تمنحك نظرة واحدة.

- إنني أعلم بذلك؟

- سيدي يحزنني أنك تعلم وإلى متى؟

- إلى أن تعلم أني صادق.

- سيدي هي لا تميل لك الآن ولا حتى بعد حين.

- سأنتظر حتى تعجب بي ولو بعد سنين.

- سيدي لا أريد إزعاجك أكثر لكن آمل أن يحدث ذلك..

(فياض) عصر الأمس كان كعادته يراقب (جوارح) حتى وصلت ودخلت الكوخ وسمع صوت أذان المغرب فنزل من أعلى سطح الدار وذهب ليصلي في مسجد الدار، فهو ملتزم بأداء الفروض جماعة في أوقاتها و(سيف) أيضا ذهب معه فهو يرافقه دائما، هو اليوم قلق جدّا ومرتبك، يسأل نفسه يوما إن كانت (نبأ) قد أنجزت المهمة أم لا عليه، إخفاء ملامح الخوف والحيرة كي لا يكشف (فياض) ما به ويكتشف أنه بسبب الاجتماع المصغر للتخلص من (جوارح) الاجتماع الذي ضم (صاحب الدار) و(شاكر) و(نصر) فبعد ذلك الاجتماع بدأ التحرك فورا.

في الساعة السابعة التقى (نصر) بـ(مغوار) القاتل الماهر واسع الحيلة كان قد بعث له خبرا ليحضر مع ابنه (هارون) قبل ساعة، وها هو قد حضر (مغوار) فور العلم بالطلب أخبره (نصر) بالمهمة الموكلة إليه وأخبره بالتعليمات وأن عليه التخلص من (جوارح) في البئر واتخاذ الحيطة والحذر، والتأكد من أنه لم يرهم أحد.

كان (مغوار) منصتا لنصر، بعدها ذهب وقد أخذ معه ثلاثة حراس. كانت الخطة تنص على أنه يأخذهم معه، فإذا ما اكتشفهم أحد حينها يبدو الأمر على أن الحراس ألقوا القبض على واحد معتوه كان يحاول السرقة. أتوا في وقتهم، اختبأ تحت صخرة بالقرب من القرية يراقب هجوعها. الساعة التاسعة ليلا انطفأت أضواء فوانيس القرية وتوقفت الحركة فيها القمر ساطع بضوئه ونوره الذي يزعج كل آفات الليل، يبدو جميلا بليلة الخامس عشر بدأ (مغوار) التحرك ليلحقه الحراس ببطء وبينهم مسافة قصيرة وصل وجلس خلف الكوخ المطلوب انتظر قليلا وحين أرادوا التحرك نحو باب الكوخ

أتى أحدهم من ناحية البئر لا يبدو أنه (الحاج محمد) والد (جوارح) فاقترب من الكوخ وهم يراقبونه وبدأ ينادي:

- يا حاج (محمد). يا حاج (محمد).

كانت (جوارح) لم تنم بعد فأيقظت والدها.

- أبي، نادته وبهدوء..

ففتح جزءا صغيرا من عينيه:

- ماذا هناك يا بنتي؟

- أبي أحدهم ينادي..

قام وبسرعة وذهب خارجا متسائلا:

- من يكون في هذا الوقت من الليل؟

خرج من الكوخ والرجل أطلق نداءه:

- يا (حاج محمد)..

- نعم من هناك؟

اقترب الرجل وقال:

- ألم تعرفني؟!!

- آهاه أنت (عارف) أهلا أهلا.

وسلما على بعض..

- هيا تفضل لتناول العشاء.

- شكرا لقد تناولته: وأردف يقول:

- أريد دلو البئر وأرني الماء.

- هل أنت وحدك؟

- نعم..
- أين أخوك (صالح)؟
- إنه في المنزل كسرت رجله ولم يستطع القدوم معي.
- زارت بدنه العافية إن شاء الله سآتيك بالدلو والأواني وآتي أدلي معك..
- لا لا عليك سلمت أرح نفسك.
- لا سآتي أساعدك.
- كما تشاء أنا سأسبقك إلى البئر.

كان كل هذا الحوار يدور أمام عيني (مغوار) وأعوانه.

عاد الحاج (محمد) ودخل الكوخ فسألته (جوارح):

- أبي من هو؟ ماذا يريد؟
- إنه (عارف) راعي الإبل أتى يأخذ الدلو والأواني ليسقي إبله سأذهب وأساعده في السقي.
- لماذا؟ أين أخوه (صالح)؟
- أخوه مريض لم يأت!
- سآتي معك يا أبي.
- لا أين تأتين؟
- لا يا أبي سآتي أدلي معك وأنت تأخذه إليه وهو يسقي إبله.

نظر إليها بفخر وحب، وقال:

- رحيمةٌ أنتِ يا بنيتي وفقك الله وأسعدك دوما..
- هيا أبي هيا..

أخذا الأواني والدلو وتوجها إلى بئر (رحيل).

وهناك كان (مغوار) محتارا لا يدري ماذا يفعل عليه إنجاز المهمة، وليس ضروريا رميها في هذا بالبئر هذا هو كل الذي توصل إليه أخيرا كانت تخميناته وتوقعاته بأن من ذهبوا إلى البئر للمساعدة والسقي هم (الحاج محمد) وزوجته، إذ إنه من المستحيل أن تذهب (جوارح) فهذه ليس عادتها حينها كانت أمها ستذهب إلا أنها كانت قد نامت وما كان عليهم إيقاظها، الفرصة أصبحت سانحة وقد حان الوقت أمام (مغوار) وأعوانه ولن تتعوض، وعليهم التحرك فورا.

دخلوا الكوخ عندما تأكدوا من ابتعاد من ذهبوا للسقي كانت ملتفة تحت الغطاء الصوفي الممزق دخل (مغوار) والبقية خرجوا ليجلسوا أمام الكوخ اقترب (مغوار) وكتم أنفاسها حتى توقفت يداها عن التحرك والضرب والمدافعة، بكل الاتجاهات وبلا هدف همدت بعد صراع الأنفاس صعودا ونزولا في حنجرتها.. أخذها ملفوفة وربطها على النخلة التي هي بجوار الكوخ قائمة واختفى أثرهم.

(مغوار) عاد إلى كوخه وكذلك الحراس عادو إلى الدار، كان (مغوار) قلقا وخائفا ماذا سيحدث عندما يعلم (نصر) أنه قد أحدث تغييرا في التعليمات وغير طريقة التخلص، وهذه أول مرة يحدث تغيير في الخطة ولكنه كان مجهزا جوابا بأن الفرصة كانت سانحة، وأن ثم عوائق حدثت لهم فلم يستطيعوا تنفيذ الخطة فكان عليه التصرف وإيجاد حل ما وبسرعة.

(عارف) كان راعيا لقطيع من الإبل هي له وهو من قرية تقع وراء الجبل يظل متنقلا للرعي في كل العزل كان يمر في العام مرة وأحيانا أكثر لقد أصبح معروفا لدى أهل العزلة وكان عندما يأتي إلى العزلة، عزلة (ردها) ينيخ إبله في

مساحة رملية على بداية قرية (نجد) من جهة الغرب جوار بئر (رحيل) وتحيط بها أشجار السدر العملاقة كان يبيت ثلاث أو أربع ليال ثم يتوجه إلى مرعى آخر.

الساعة الواحدة منتصف الليل انتهت (جوارح) ووالدها من السقي مع (عارف) ولم يكونا يتوقعان أنهما سيتأخران كثيرا انتهيا أخيرا وعادا إلى الكوخ لم يجدا الأم نائمة ولا حتى غطاءها.. بحثا عنها في كل مكان وأخيرا وجداها مربوطة بجذع النخلة ملفوفة بغطائها أسرعا لفكها وعيناهما تغرق بالدمع وأجسادهما ترتعش لا تتوقف لا أحد يستطيع التحكم بيديه فأنزلاها وفتحا الغطاء ليروها جثة هامدة.. لا حركة فيها ولا نفس أجهشا بالبكاء.. أطلقا الصرخات في هدوء الليل أول السامعين لهما كان (عارف).. أسرع إليهما وتجمع الناس في هذه اللحظة العصيبة.. كل القلوب قد برح بها الأسى، واشتد بهم الجزع.. إلى جانبهما يعزونهما بمفقودتهما وعيونهم تغرق بالدمع المنهمرة الغزيرة، وكل الأهالي يتساءلون: من فعل ذلك؟ ولماذا؟..

جوارح ووالدها مصدومان لم يعد أحدهما يسمع شيئا أو يستطيع التحرك حركة واحدة سوى البكاء والصراخ ترددت الصرخات في أرجاء القرية فكثر الناس وتجمعوا فأحدثوا جلبة وضوضاء وصلت إلى الدار كل من في الدار سمع وصعد إلى السطح لمعرفة ماذا يحصل في القرية؟

وكان من بين من صعدوا (سيف) و(فياض) و(نصر) يسمعون ضجيج القرية ويرون رجالا وأشخاصا يركضون في فوضى يحملون بأيديهم فوانيس.

(نصر) يقترب ليجلس بجوار (فياض) ويقول له: ترى ماذا حدث هناك يا سيدي؟ أظن أن مكروها قد حدث ترى من يكون صاحب ذلك الكوخ؟

كانت هذه الأسئلة جميعها تقصد إيصال شيء ما إلى (فياض) تعمد (نصر) إيصاله كان وجه (نصر) يظهر على ضوء الفانوس الذي يحمله أحد الحراس القريبين من (فياض) انتبه لهذه الملامح الماكرة الغادرة ساد الصمت قليلا في زحمة الافتراضات والتوقعات حتى قطعها صوت (فياض) بقوله:

- أيها الحارس نادهم واسأل ماذا هناك؟

(سيف) يقول:

- لا عليك سيدي سأذهب بنفسي.

(فياض): ومتى سترجع؟ علينا معرفة الأمر حالا..

صمت (سيف) وهو خائف يترقب وقد تأكد أن (نبأ) لم تذهب وتخبرهم، هو الآن قلق بشأن سيده ماذا سيحصل له عندما يعلم بأنهم قد تخلصوا من (جوارح).

نادى الحارس بصوته الجهوري:

- يا حاج (محمد). يا حاج (محمد)، ماذا هناك؟ ما الذي حصل؟

رد عليه رجل آخر وكان صوته يتقطع فلم يتضح من كلامه شيء سوى وجدت مربوطة بعرض النخلة.

عاد الحارس ونادى محاولا أن يفهم:

- ومن هي؟

- زوجة الحاج (محمد).

(نصر) يسمع محاولا عدم التصديق تحرك فورا ووجهه يمتلئ بالغيظ. ذهب إلى (هارون) وصرخ في وجهه قائلا:

- عليك جلب أبيك فورا هيا..

- حاضر سيدي.

- هياااااا أسرع.

(سيف) يشعر بقليل من الارتياح لأن المتوفاة ليست (جوارح) مع القليل من الحزن والأسى لأجل والدة (جوارح).

تحرك (فياض) من مكانه قائلا:

- هيا (سيف) هيا نذهب إليهم.

ذهبا إليهم وبسرعة وقفا إلى جانبهم في هذه المأساة والوقت العصيب (نصر) في ساحة الدار مضطرب وقلق يجمع حاجبيه في توتر شديد يتحرك ذهابا وإيابا ينتظر وصول (مغوار) ها هو قد وصل فصرخ فور وصوله:

- ماذا عملت أيه الأبله؟

- ماذا؟ هاه؟

- قتلت الأم؟

- معذرة سيدي ماذا قلت لم أفهم أي شيء؟!

- وأيضا لا تعلم من قتلت لن أرحمك سترى!

- سيدي قتلت (جوارح) كما قلت لي..

- لاااااااااا يا أحمق أنت قتلت والدتها.

(مغوار) شعر بحجم المصيبة التي عملها لقد ارتكب خطأ كبيرا فادحا وعليه التوسل فورا لأن (نصر) لا يرحم!..

- إنني أعتذر يا سيدي لكنني ظننت أن زوجة (الحاج محمد) هي من ذهبت معه وساعدا (عارف) في سقي الإبل وأن من كانت نائمة هي (جوارح).

- كان عليك التأكد يا أحمق! أخطأت الهدف وقمت بتغيير التعليمات. من قال لك أن تربطها بعرض النخلة؟ ألم أقل لك أن ترميها في البئر وحادثة طبيعية وليس بفعل فاعل..

عاود الصراخ:

- ماذا أقول لسيدي (صاحب الدار) لماذا خالفنا الأمر؟ هيا اذهب إلى كوخك حتى أبعث إليك؟

- حاضر سيدي..

ذهب نصر إلى سيده (صاحب الدار) ليسمعه الخبر قبل أن يسمعه من غيره فيقطع عنقه وأخبره بأن الهدف تغير، وأيضا الطريقة كان يقولها وهو في حالة إذلال وخزي وخوفٍ من سيده.

- سيدي لم يتصرف (مغوار) كما قيل له لكنني عاقبته.

جن جنون (صاحب الدار) وثار غضبه وبرزت عيناه فأوامره لم تتغير يوما وصرخ:

- ماذا قلت؟ تغير الهدف؟! ومن قتلتم؟ الحاج (محمد)؟

- لا سيدي، زوجته!

- ماذاااااااااا؟ عليك قتل هذا المعتوه (مغوار) لقد ارتكب خطأ فادحا وإلا قتلتك أنت.

- آسف سيدي لقد أخطأت هذه المرة وستكون الأخيرة.

- كان عليك تكليف أحد غيره، عليك التخلص منه وكل من ساعده..

- حاضر سيدي؟

- الحادثة أصبحت واضحة أنها بفعل فاعل ونحن المسؤولون والتهمة ستوجه لنا الآن لا أحد غيرنا يتجرأ على فعل شيء كهذا عليك التحرك صباحا.

- إلى أين يا سيدي؟

- إلى القرية للتحري حول الأمر وتسأل وتبحث عن الفاعل لعله لا يشك بنا أحد لا نريد مشاكل في هذه الفترة.

- حاضر سيدي.

بدأت الشمس بالبزوغ شيئا فشيئا وبعد لحظات ستشيع القرية جثمان المتوفاة في موكب جنائزي مهيب اجتمع فيه كل أهالي القرية وكذلك القرى المجاورة وأيضا (فياض) و(سيف) وكذلك الأطفال مشاركون في التشييع بنظرات تكتظ حزنا وأسى حتى وُري جثمان الفقيدة مقبرة قرية (خرابة) وهي بعيدة قليلا يفصلها عن قرية (نجد) طريق السيل الواسعة، النهار كاد ينتصف وها هي الشمس لا تزال قابعة خلف السحب عاد الناس من الدفن بقلوب يعتصرها الألم والحزن وها هو (نصر) يجمع الأهالي وعلى وجهه قناع الحسرة والتأسف لما حصل ويقول:

- لا أدري من تجرأ وعمل هذا العمل الشنيع وأعدكم بأني سأجده وأقطعه إربا إربا.

وبدأ التحري وضع الأسئلة للأهالي لكن أسئلته تلك لم تجد لها أفواها تجيب عليها، وها هو يواصل وضع الأسئلة..

- هل سمعتم شيئا؟

هل رأيتم أحدا؟

ألم تتشاجر مع أحد؟

كان يوجه سؤاله هذا إلى (جوارح) ووالدها لكن حالتهما يرثى لها فكرهما شارد ضائع، قلبهما ميت لا يدق إلا لتعيش تلك الأعضاء. هما في حالة صدمة كبرى، كانت نظرات أهالي القرية إلى (نصر) وحرسه تقول: كفى تمثيلا واخلعوا قناع البراءة.

كان أهالي القرية وأيضا (فياض) و(سيف) على يقين أن من ارتكب تلك الجريمة أحد من قبل (نصر) بأمر من (صاحب الدار) لكن السؤال الذي لم يجد له (فياض) جوابا هو: ما هو السبب وراء قتلهم زوجة (الحاج محمد)؟!

لقد كان (نصر) يعلم كل ما يجري في العزلة حتى أبسط الأشياء حتى إذا كسرت رجل إحدى الأبقار في إحدى القرى يعلم بذلك فور حصوله، فكان موت زوجة (الحاج محمد). استحالة تصديقهم بأنهم لا يعلمون شيئا.

في هذا الصباح سافرت (نبأ) مع مولاتها (صاحبة الدار) إلى المدينة وكان من المفترض أن تسافر البارحة إلا أن السيارة تعطلت، ها هي الشمس تمر بين غمامتين منحدرة للغروب وبدأ الشفق حول قرص الشمس الغاربة أحمر اللون قريح الجفن يضمر الآلام والأحزان، ويبعث في النفس الأسى حل المساء ليسود القرية صمت رهيب وسكون كسكون المقابر لا يقطعه إلا نباح الكلاب القادم من الحقول المجاورة..

بعض الجيران ما زالوا في كوخ (الحاج محمد) يواسونه ويشاركونه محنته.

كانت (جوارح) ووالدها عصيي الدمع نهارا أمام أعين الناس فإذا أسدل الليل ستاره ضعفا وخانهما صبرهما وتجلدهما وأطلقا لأصواتهما العنان وذرفا الدمع الغزير لإحساسهما بالفقد والوحشة.

عاد (فياض) و (سيف) ودخلا غرفتهما سيئة الإضاءة تلك قعد كل منهما على نافذته (سيف) ذهنه شارد يسأل نفسه: كيف تبدلت الضحية؟ ولم كان اتفاق الرمي في البئر وما حصل هو الربط على النخلة؟ قتل الضحية ورميها في البئر الأمر كله كان سيبدو طبيعيا. وهل هذه المرة يقصد من وراء هذا العمل شيئا؟ وأيضا لماذا غيروا كل شيء؟ هل أحسوا به عندما تنصت عليهم؟

إن نصر وصاحب الدار يحاولان في هذه الفترة أن يكونا أقل حدة وعنفا مع المواطنين نظرا للظروف السياسية وبعد انتفاضة الفلاحين ضدهما.. يبدو الأمر قد حصل دون معرفة جيدة للنتائج وغير حساب وهذا غريب عليهما..

(فياض) رأسه ممتلئ بعلامات الاستفهام فهذه أول مرة تحدث جريمة كهذه و(صاحب الدار) يدعي عدم معرفته وكل شيء يحدث بإمرتهما إن جميع أساليب القمع التي يستخدمها والده (صاحب الدار) تكون سرا وبذكاء لم هذه المرة تغير الأمر؟!

- ولم اختيرت زوجة (الحاج محمد) بالذات؟ وماذا يستفيد من قتلها؟

طرق الخادم باب الغرفة دخل ووضع وجبة العشاء ليعود بعد لحظات ويأخذه كما هو لم ينقص منه شيء لا أحد منهما يستطيع أكل شيء في هذه الظروف، كلاهما صامت يحاولان معرفة شيء.

ازداد قلق (سيف) وبدت عليه الحيرة (فجوارح) لم تمت، وهي من كانت المقصودة فهل الليلة سيتم تصحيح الخطأ الأول ويتم رمي الجريمتين وإثباتهما على مجهول؟

نهض فجأة وبادر بالخروج فقاطعه (فياض) بقوله:

- إلى أين ستذهب؟

- آه لقد نسيت.. لقد أخبرني أحد الخدم بأن أمي طلبت مني أن أذهب إليها عصرا وها أنا قد نسيت حتى الآن عليّ الذهاب بسرعة..

- حسنا

خرج بهدوء يترقب ما إذا كان أحدهم يراقبه، اقترب من الكوخ وهو كوخ (الحاج محمد) الذي لا يزال ضوؤه مشتعلا دخل عليهم خلسة..

- مساء الخير.

ردا عليه بهدوء.. بصوت يخرج من حنجرتهما المختنقة بالبكاء:

- مساء النور.

ظل صامتا فترة لكن يظهر ملامح الخوف ويبدو أن لديه كلاما..

- هناك شيء يا بني يبدو أن لديك كلاما؟

- يا (حاج محمد) أنا أتيت لكي..

- لكي ماذا؟..

- لكي أخبركم من قتل زوجتك هو أحد الحراس بأمر من (نصر) و(صاحب الدار)

- ولماذا عليهم قتل أمي ما الذي صنعته؟

(جوارح) ووالدها كانوا على يقين بأن (صاحب الدار) له يد بالأمر لأنه صاحب القوة والنفوذ لكن ما لا يكونان يعرفانه هو سبب قتلها.

لكن سيف يخبرهما قائلا:

- لا لم تكن هي المقصودة..

- من المقصود إذن؟

- أنتِ يا (جوارح)..

- أنا ولماذا؟..

قال وبخجل: لأن سيدي (فياض) واقع بحبك وقد تشاجر مع (صاحب الدار) عدة مرات عندما طلب منه تزويجه بك، وقد زعموا أنك أغويته عن عمله وسبب ذلك خلافات كثيرة مع والده..

- ومن قال له بأنني أريد ابنه سواء أقبل أم لم يقبل؟

(نصر) هول الموضوع أمام (صاحب الدار) وزاد بالكذب والافتراءات، فما كان من (صاحب الدار) إلا أصدر أمرا بالتخلص منكِ حيث من المؤكد أنه قد يتخلص من ابنه أيضا، ثم قال:

- لقد أتيت لكي أخبركما بأنه ما دام أنهم لم يجدوا الجاني المزيف حتى الآن، فهم يرغبون بأن يتم تنفيذ أمر آخر وبعدها يتم القبض عليه..

قال (الحاج محمد) وقد اتسعت عيناه:

- هل من المحتمل أن يعودا للقتل..؟

- لست متأكدا إنها مجرد افتراضات ولو أنكم تذهبون هذه الأيام القليلة إلى كوخنا وتعيشان مع أسرتي فنحن جيران، يكون ذلك أحوط، عليَّ العود إلى الدار تمسيان على خير..

- وأنت من أهل الخير يا بني شكرا أنت كما أنت بالرغم من عيشك بالدار لم تتغير طيب ومهتم لأمرنا..

لم يكن لدى (سيف) وقت طويل للتحدث أو الرد حتى عليه أن يرجع قبل أن يراه أحد فتبدأ التحقيقات معه التي لا تنتهي إلا بقتله، وهذه هي الفرصة التي ينتظرها(نصر) بفارغ الصبر.

(رحيل قسري)

بعد أن توفيت زوجة (الحاج) محمد في الظروف الغامضة التي زعمت، وبعد زيارة (سيف) لـ(جوارح) ووالدها وإخبارهما بتوقعاته بأمر القتل وجريمة أخرى ربما قد تحدث.

بعد انصرافه قرر (الحاج محمد) و(جوارح) أن يغادرا القرية، لا علم لهما إلى أين لكن ما يعلمانه هو أن الأرض ضاقت عليهما بما رحبت، فالحياة بهذا الكوخ وفي هذه القرية أصبحت مستحيلة بعد وفاة الأم.

قاما وجمعا قليلا من الأمتعة وأشياء تلزمهما طيلة الليلة فجرا بدأ الفجر بالبزوغ وتحركا نحو المقبرة خلف طريق السيل وجلسا جوار القبر يدعوان ويترحمان على الأم المتوفاة سيول دموعهما كالمزن كان عليهما الرجوع إلى القرية وبسرعة لكي يغادرا قبل أن تبدأ الحركة، عادا مسرعين دموعهما على خديهما سيولا لا تتوقف فهذه المرة الأخيرة التي ذهبا إلى المقبرة ومن يعلم هل هناك عودة أم لا؟!

أخذا أمتعتهما وقد عزما على الرحيل لا مجال للتراجع خرجا من كوخهما وابتعدا عنه ووقفا يودعانه وألقيا على ربوعه نظرتهما الأخيرة باكيين بكاء حارا بدموع غزيرة فياضة انهمرت على خدودهما..

أدارا ظهرهما للقرية وبدآ المسير مودعيها ومفارقيها فراقا مؤبدا، حزنهما على وفاة الأم ذهب بقوتهما النفسية والجسمية وجاء الفراق والبعد والهروب فذهب بالبقية الباقية.

أخذتهما أقدامهما إلى التلة القريبة من (غابة رماح) لقد نويا البقاء فيها لكنهما ما زالا يريان القرية منها، وعيناهما لم تعد تريد رؤية القرية ولا سمائها أبدا، فتوجها إلى (غابة رماح) التي لم يدخلها أحد قبلهما لا يعلمان ماذا سيواجهما في الغابة، لكنهما أصبحا على يقين أن الرجوع أكثر صعوبة وخطورة من إكمال الرحيل إلى المجهول، وأن وحوش (غابة رماح) وأساطيرها قد تكون أرحم من وحوش القرية.

الشمس لم تطلع بعد، عليهما إشعال أعواد أخذاها بأيديهما، ودخلا للاستضاءة بها في الغابة، لا أحد منهما يعلم ما يخبئه الطريق المظلمة أشجار الغابة الكثيفة التي لا يمكن رؤية السماء من تحتها، وفي وسط هذه الغابة وظلمتها على كل واحد منهما أن يلتقط أنفاسه التي قد تكون الأخيرة فقد يقعان بين فكي وحش كاسر في أي لحظة..

كانا يتوغلان وسط الغابة ينويان الوصول إلى ذلك المكان الذي يستمر صعود الدخان منه من وسط الغابة ليريا ماذا عندها، الظلام حالك والبرد قارس، الغابة يملؤها عواء مخيف وأصوات مختلفة مرعبة.. وهناك عيون تلمع من خلف جذور تلك الأشجار المقاربة لهما ليس واضحا أي وحش صاحب هذه العيون.. تزداد العيون المراقبة لهما لا تجرؤ على الاقتراب خوفا من النار التي يحملانها بأيديهما، بالرغم من خوفهما الشديد وذعرهما لم يخطر ببالهما العودة أو التراجع بل أصرا على المواصلة آملين أن يجدا مكانا آمنا عند ذلك الدخان.. عليهما المشي سريعا وبحذر واحتراس شديدين.

في تلك الليلة أمضى فياض ليلته بذهن يقظ وعيون ساهرة، وقد عقد العزم على اكتشاف من قام بقتل زوجة (الحاج محمد) وربطها..

كانت أفكاره تتوقف جميعها عند (نصر) إحساسه مشجع لتلك الأفكار ولكن عليه معرفة السبب..

وهل والده على علم بذلك أم لا؟

وهل والده لا يعلم حقّا بما جرى؟

وهل سبب الجريمة مشاجرته مع والده عصر ذلك اليوم التي كان سببها طلب زواجه من (جوارح)؟

كل تلك الأسئلة كان يوجهها (فياض) إلى رفيق دربه (سيف)..

كان (سيف) يعرف إجابة معظم تلك الأسئلة وعليه عدم إخباره بالإجابة لأجله فكان يرد عليه بعلامات التعجب التي تظهر على وجهه ويقول:

- لا لا لا أظن.

- قد يكون ذلك.

- ربما.

- لا تعلم هل تشاجر مع أحد؟

- لا لم أعلم.

(رماح)

الشمس بدأت بإرسال أشعتها إلا أن غابة (رماح) لا تزال مظلمة بسبب كثافة أشجارها

(جوارح) ووالدها لا يزالان يواصلان المسير ويزدادان توغلا في الغابة، لا يعلمان إلى أين.. الجو بارد جدا.. وأصوات الهواء تزداد وصوت أقدام مجهولة تقترب.. تزداد سرعتها نحوهما..هناك رائحة دخان تنتشر في الأرجاء.. فبدأت تقع على ملامحهما القليل من ملامح النجاة.. فحثا سيرهما باتجاه رائحة الدخان الذي كان يزداد انتشارا كلما اقتربا.

استمرا بالسير ربع ساعة في حالة خوف وترقب..

أسرعا الخطى حتى وصلا أخيرا إلى جوار النار المقصودة.. جذع شجرة طويل جدّا وعريض أيضا يحترق.. إلى جواره ركام من الرماد.. يمتد ضوء تلك النار لمساحة كبيرة داخل الغابة..

أحسا أخيرا بالأمان الذي كان يملؤ كل مساحات ذلك الضوء، وهناك على سطح الصخرة يوجد جذع صغير مشتعل في مقدمة صخرة منتهية بجذع شجرة ضخم؛ كانت تلك هي شجرة (الإثبة) لا تصل النار إليها فتحترق الغابة بأكملها، وحتى وضع ذلك الجذع المحترق بالقرب من صخرة كبيرة جدا؛ هي بحجم منزل شاهق الارتفاع مربعة الشكل على أحد جانبيها نحتت درجات واسعة تمتد من أعلى الصخرة وحتى أسفلها.. هناك في أسفلها رأس الجذع

المشتعل ونهايته باتجاه الغابة كانت طريقة وضعه تلك تمنع أي شيء من الاقتراب أو الصعود من تلك الدرج بسبب النار المشتعلة..

عبرا جوار النار وبحذر شديد صعدا الدرج خائفين مرعوبين تسري في جسديهما الرعشة..

وصلا إلى سطح الصخرة وبدآ يتلفتان هنا وهناك علهما يجدان أحدا على سطحها.

اقتربا من النار الصغيرة وجدا هناك وحشا ممددا إنه ضخم الجثة هو بحجم الفيل ابتعدا عنه مرعوبين.. مفزوعين جلسا وأسندا ظهريهما إلى جذع (الإثبة) عيناهما محدقة في ذلك الوحش الممدد ينتظران استيقاظه؛ وفي هذا الانتظار الصمت مطبق على كل واحد منهما والانتباه والحذر فالوحش قد يستيقظ في أي لحظة..

توسطت الشمس كبد السماء وسطح الشجرة نصفه تغطيه أغصان شجرة (الإثبة) والنصف الآخر لا يغطيه شيء تسقط عليه أشعة الشمس العمودية بدت واضحة جدّا ملامح ذلك الوحش الذي كان نصفه في الظل ونصفه الآخر تحت أشعة الشمس..

لقد كان طويلا بطول تلك الصخرة؛ ذا شعر أسود مجعد تملؤه الأتربة والأوساخ، متشابك جدّا علقت به الأتربة وأوراق الأشجار وريش الطيور.. رأسه كبير جدّا دائري الشكل بحجم إطار سيارة.. جبهته عريضة وأنفه أفطس كبير يملأ وجهه حواجب كثيفة سوداء.. وعيناه مغمضة تبدو كبيرة واسعة يحتل النمش مساحات وجهه.. فمه واسع وأسنانه سوداء غليظة.. فمه مفتوح وهناك نابان لامعان من فكه الأعلى يضغطان على شفته السفلى.. ولعابه

يسيل من الأشداق.. وأذناه طويلتان ومتجهتان إلى أعلى رقبته.. عريضة جدّا هناك جلد بني اللون لإحدى الحيوانات يغطي به جسده من السرة حتى الركبة.. قدماه صلبة ومتشققة تملأ تلك الشقوق الجروح والأوساخ.. صوت شخيره كخوار الثور.

كان ذلك الوحش الممدد يشبه الإنسان في التركيب ويختلف عنه بالحجم وبعض التفاصيل؛ وعلى الرغم من شكله المخيف فإنهما يشعران نحوه بشعور الأمن والطمأنينة.. ليسا متأكدين من ذلك الشعور..

ظلت (جوارح) ووالدها طيلة ذلك اليوم ينتظران استيقاظ ذلك الوحش إلا أنه لم يستيقظ.

مضت ثلاثة أيام وهو في سباته العميق كان يغلبهما النعاس فينامان لأوقات وإذا استيقظا نظرا هل صحا ذلك الوحش أم لا!

مضت أربعة أيام واستيقظ الوحش أخيرا رآهما نائمين لم يقترب منهما أو يؤذيهما.. ذهب واختفى في الغابة..

وفي الظهيرة استيقظا؛ فعندما لم يجدا الوحش الذي لم يأكلهما انتظرا رجوعه.

فعاد وهو يحمل حيوانا قد قام بقتله وعلقه برأس عصاه ووضعه على النار التي بجوار الصخرة التي لا تنطفئ أبدا، أما النار الصغيرة التي كانت على سطح الصخرة فقد أطفأها عند استيقاظه؛ يبدو أنه يشعلها ليلا ويطفئها نهارا.. شوى ذلك اللحم أخذه وصعد به إلى سطح الصخرة.. ولم ينظر إليهما لكي لا يخيفهما؛ وكان قد أحضر معه أيضا بعض ثمار التين الشوكي فرماها اليهما فأخذاها وأكلاها.. فقد كانا جائعين جدا.

استمر الصمت بين الجانبين وأيضا شعور الأمن كان نظراته ترشقهما من وقت لآخر بعلامات الاستفهام فيدب في جسديهما الذعر من تلك النظرات وكان على ذلك الوحش كسر الصمت؛ فقال بهدوء:

- لماذا أتيتما غابتي؟

كادت ألسنتهما تختبئان في حنجرتيهما ولم يستطع أحدهما الإجابة: وأردف قائلا:

- من أي قرية أتيتما؟ هل هربتما؟

كان بصوته الهادئ وأسئلته يحاول ألا يخافا منه استجمع الأب قواه وقال بارتجاف:

- نحن من قرية (نجد) أتينا لنعيش هنا..

ظهرت على وجه الوحش ملامح الرضا والترحيب بالعيش معه، كانت تلك الأسئلة والإجابة بداية الألفة.. فمن ذلك الوقت تشاركا إحضار الطعام والماء الذي كان له صخرة متوسطة مستطيلة شكلت كالوعاء يصب فيها ماء كان ذلك الماء منبعه من أحد الكهوف التي على سطح (جبل إبراهيم) ليمر في سطح الجبل ويصب في الهاوية ليقع في أسفل الجبل في حفرة كبيرة يتحرك ذلك الماء من تلك الحفر إلى تلك الصخرة التي تشبه الوعاء ويتم أخذ الماء منها إلى أعلى الصخرة للشرب بدأوا يتقاسمون العيش والألفة وبدأوا التعارف والحديث حتى حكى (الحاج محمد) قصته وما حل بهما.

كان ذلك الوحش اسمه (رماح) هو على معرفة قديمة (بصاحب الدار) وقصص الدار القديمة؛ فقال لهما:

- من هو صاحب الدار حاليا؟

رد (الحاج محمد):

- مصطفى

قال رماح:

- هل تعرف والده؟

- نعم أعرفه.

- أنا من قمت بقتله.

قال: وبدون شعور أنت!!

قال: نعم وبدأ يسرد القصة لهما.

منذ زمن ظلت قبائلنا (قبائل رماح) تنتقل من قرية إلى أخرى؛ ومن مكان إلى آخر؛ كان شكلنا هذا بسبب المشاكل مع القرى والحروب أيضا فكانوا يضطرون الى الهروب والبحث عن مكان جديد للعيش؛ فظلوا يتنقلون حتى وصلوا إلى هذه الغابة وسموها باسمهم (غابة رماح) وسكنوا فيها فكانت قبائلنا تهجم ليلا على مزارع الفاكهة التي في هذه العزلة؛ فبدأت المطاردة لهم ومحاولة إخراجهم من هذه الغابة؛ حينها كنت في السادسة من عمري، وعلى الرغم من كل محاولات (صاحب الدار) فإنها لم تأت بنتيجة فقبائلنا تختفي في هذه الغابة نهارا وتتحرك ليلا ولا أحد يستطيع صد هجومها.. حاولوا إحراق الغابة.. طوق الحرس الغابة بالكامل ووضع الكثير منهم على سطح هذا الجبل؛ وقاموا بإطلاق النار عشوائيا ولأننا بدون مساكن قتل الكثير منا وفي كل أسبوع يعاودون التمركز وإطلاق النار.. في كل يوم جديد يسقط الكثير منا.

كانت خططهم القادمة هي دخول الغابة وأخذ كل من فيها كان البقية قليلين يرفضون الخروج من الغابة فتم قتلهم فورا لم يبق سوى أنا وستة آخرين تم أخذهم؛ من بينهم جدي هو الوحيد الذي لا يزال حيا من أسرتي وهو زعيم القبيلة أما أنا فتسلقت إحدى الأشجار واختبأت واستمرت علميات التمشيط تلك في الغابة لمدة ستة أشهر؛ ثم توقفت بعد التأكد من انتهاء هذا النوع من البشر.

كنت أبقى فوق الشجرة وعندما أنزل منها تبدأ الوحوش بملاحقتي؛ وكنت أدافع عن نفسي بأعواد النار التي كنت أشعلها وآخذ طعاما وأعود إلى رأس الشجرة، كانت هذه الصخرة بمثابة قصر زعيم قبيلتنا.. مرت الأيام وكبرت وبدأت التفكير في إخراج جدي ومن معه وفي أحد الأيام انقطع علي الماء فصعدت إلى أعلى الجبل وأصلحت مجرى الماء فرأيت رجلا اسمه (إبراهيم) كان يعمل في الدار فطلبت منه مساعدتي فوافق ولم يرفض أعطيته بعض أوراق إحدى الأشجار فوضعها في وجبة العشاء لتلك الليلة وذهبت أنا من هنا وتوجهت فورا إلى الطابق السفلي وفتحت البوابة في حين كان الحراس والخدم و(صاحب الدار) وأبناؤه في سبات عميق، بدأت في البحث عن جدي إلا أن جميع تلك الغرف صغيرة جدّا ومن فيها هم أناس منكم أنتم فعندما كنت أفتح عليهم باب الغرف المغلقة تلك فيهربون فور فتحي لهم والبعض كان يراني ويخاف مني ويعاود غلق الباب على نفسه، كنت على يقين أن جدي ومن معه هناك في الطابق السفلي لكني لم أجدهم مضت عشر سنين منذ أن أخذوهم، قد يكونون قتلى أو يكونون قد ماتوا في هذه الفترة نتيجة التعذيب صعدت إلى الطابق العلوي ودخلت غرفة (صاحب الدار) وضربته بعصاي هذه في رأسه

ومات في حينها في ذلك الوقت، تولى ابنه الحكم وهو صغير في السن، وعدت إلى غابتي وظلت الأساطير تتناقل حول هذه الغابة والخرافات المختلفة وسميت الغابة باسم قبائلنا (غابة رماح).

تعجبا كثيرا من قصته تلك..

قال (الحاج محمد):

- (إبراهيم) ذلك لقد سقط من أعلى الجبل في أثناء صعوده في إحدى الليالي وقد تم تسمية هذا الجبل باسمه حينها.

قالت جوارح:

- وصاحب الدار أصبح كبيرا في السن وله ستة من الأبناء ينهجون نهج أبيهم وأجدادهم ويتناقلون الحكم الجبروتي من واحد إلى آخر.

(علة)

أشرقت الشمس بعد ليل طويل مظلم وحالك أمضاه (فياض) ساهرا وقلقا ليتوجه باكرا إلى القرية إلى كوخ (الحاج محمد) لكي يطلع على حالهما ويتفقدهما. وعند وصوله نادى من باب الكوخ:

- يا حاج محمد. يا حاج محمد.

لم يرد عليه أحد.

قال (سيف): يبدو أن لا أحد يا سيدي!

- أين هما؟

- يبدو يا سيدي أنهما ذهبا إلى المقبرة.

جلسا تحت النخلة ينتظران رجوعهما، انتصف النهار وهما ينتظران ولم يرجع أحد.

- سيدي سأذهب إلى كوخنا قد يكونان هناك.

- نعم اذهب.

ذهب مسرعا ليجد أمه تحلب البقرة.

- صباح الخير يا أمي.

- صباح الخير بني.

- كيف حالك أمي؟

- الحمد لله بخير!

- أمي، (جوارح) ووالدها عندنا، صحيح؟

أدارت رأسها وقالت:

- (جوارح) ووالدها لا، ليسا عندنا لماذا؟

- لم نجدهما في كوخهما ظننت أنهما هنا!

- لا يا بني لم يأتيا إلينا.

- وداعا أمي سأذهب لأنظر لعلهما قد رجعا من مكان ما.

عاد (سيف) إلى (فياض) وقال له فور وصوله:

- هل هما عندكما في الكوخ؟

- لا قالت لي أمي لم يذهبا إليها.

- علينا البحث عليهما في القرية..

قاطعه بصوت رقيق:

- لا داعي للبحث. كان ذلك الصوت لفتاة تتكلم بخجل وارتباك شديد موجهة نظرها إلى الأرض.

رد عليها (فياض) وبغضب:

- ولماذا؟ أين هما؟

وفصل بينهما صمت ثم قالت وبحزن شديد كان واضحا على وجهها:

- لقد رحلا ولن نراهما مرة أخرى.

سألها مرة أخرى:

- لماذا؟ أين هما؟

- ذهبا..

- إلى أين؟

ردت عليه:

- لا أعلم يا سيدي، (جوارح) أتت فجرا اليوم لتودعني ولم تخبرني بشيء آخر سوى أنها سترحل ولن تعود!

سألها في حيرة:

- لماذا رحلا؟

انهمرت دموعها وهي تقول:

- لقد سألها لكنها ردت بقولها: لأن بقاءهما في القرية أصبح خطرا كبيرا وأن عليهما إنقاذ أرواحهما.

وأردفت تقول بغصة تملأ حلقها:

- لقد قالت لي: سنرحل إلى مكان لا نرى منه القرية ولا نسمع أخبارها سنبحث عن مكان نسائم القرى وهواؤها لا يمر منه.

أنهت كلامها وأدارت ظهرها ورحلت تكتم صوت بكائها بيدها فكان يخرج القليل منه متسللا من بين أصابعها.

استبدت الحيرة (بفياض) وقلقه وشكوكه ومع كل ما سمع قال:

- هيا لنبحث عنهما في كل مكان في العزلة ولا نلتقي إلا وقد وجدناهما.

ثم سأل وقال: من تلك الفتاة يا (سيف)؟

رد عليه: إنها (رثاء) يا سيدي صديقة (جوارح) المقربة.

رد وبهدوء: إذن فهي الحقيقة ما تقول، فهما رحلا وقال:

- علينا البحث عنهما وإعادتهما أو على الأقل معرفة سبب رحيلهما.

- هيا يا سيدي، الحراس يبحثون في العزلة بأكملها؛ ونحن نذهب إلى خلف الجبل.

- هيا قبل أن يعلم (نصر) ورجاله ويبحث عنهما قبلنا.

انطلقا حينها باتجاه قرية خلف الجبل ووجدا (عارف) على مشارف قريته مع إبله أخبراه بالقصة، فاندهش بالخبر وأخبرهما بأنه تحرك الساعة التاسعة ليلا حينها كان كوخ (الحاج محمد) ما زالت فوانيسه مشتعلة فذهبت وأخبرتهما بأني سأتحرك مع إبلي وأعطياني طعاما وماء حملته معي وذهبت، من المؤكد أنهما الساعة التاسعة لا يزالان في الكوخ لأنهما تحركا فجرا.

قال (عارف): يا سيدي لم يكن واضحا عليهما أنهما ينويان الرحيل أو المغادرة كان الأمر طبيعيا.

تركا (عارف) وعادا إلى الدار وفي ساحة الدار وجدا (نصر) مضطربا كثيرا تأتي إليه مجموعات كان قد أرسلها للبحث عن (جوارح) ووالدها وكل تلك المجموعات تعود بالرد نفسه بأنه لا أثر لهما في أي مكان.

(سيف) و (فياض) التزما الصمت وذهبا إلى الغرفة فالشمس كانت قد غابت ذلك الوقت، مضى.....يومان..ثلاثة.. وأسبوع، وعمليات البحث متواصلة من كلا الجانبين جانب (نصر) و(فياض) وكلا الجانبين جاد غير أن مجموعة (نصر) كانت جادة بشكل كبير جدا؛ ففرار أحدهم ولا يعلم أحد من أهل الدار ولا يتم العثور عليه من قبلهم كان بالنسبة لهم وصمة عار لصاحب الدار ومن يعمل معه، الحاكم المسيطر ولم يسبق أن حدث هذا من قبل. وأيضا فرار أحدهم أو اختفاؤه قد يجعل أهالي القرى يقلدوه.

وأيضا أصبح حديث جميع الأهالي، همساتهم توحي بافتخار كبير بأولئك الذين استطاعوا الهرب من هذا الظلم غير مبالين (بصاحب الدار) أو بغيره.

كان (نصر) و (صاحب الدار) يدركان مدى خطورة وتأثير الاختفاء على سمعتهم أمام الأهالي؛ لذلك كانا مصرين على العثور عليهما وإعادتهما وتأديبهما أمام هؤلاء الأهالي لتعود إليهما هيبتهما إلى سابق عهدها.

الجانب الآخر الذي كان يبحث وبشكل شبه سري جانب (فياض) و(سيف) وقليل من الحراس المخلصين لهما.

(نصر) وجماعات البحث الخاصة به توقفت عن البحث بعد ستة أشهر؛ حيث قام (نصر) بخطوة من شأنها أن ترجع هيبته فشدد الحراسة على القرى ليلا ونهارا للاحتكاك بالمواطنين والتشاجر معهم وتعذيبهم لأتفه الأسباب؛ وفي بعض الأحيان دون سبب، فزادت حدة جبروته وسطوته وأصبح كالليل الذي حل ونشر ظلمته بكل مكان.

(فياض) ومن معه استمروا بالبحث لمدة سنة، وكانت النهاية كنهاية مجموعة (نصر) والتوقف.

مر الشهر الثالث عشر ودنت ليلته من اكتمال القمر من جديد في ليلة ماطرة مع ريح تضرب نوافذ الدار وتطفئ بعض فوانيس الدار.. إنه مطر غزير وبارد هو أول مطر في هذا الخريف.. لقد بدأ يغزو أوراق الأشجار أول طيف من اللون الأصفر وفي ليالي الخريف الطويلة كان يدور نقاش حام بين (سيف) و(فياض) كاد يصل إلى المشاجرة ومد الأيدي.

- سيدي، لقد جلبت لك العشاء بنفسي فهلا أكلته؟!

- رده إلى المطبخ لا أريده!

- سيدي أرجوك أن تأكل!

- قلت لا أريد شيئا أرجعه.

- لا لن أرجع شيئا وسوف تأكل؛ ألا تنظر إلى نفسك لقد ذبلت عيناك؛ ووجهك أصبح شاحبا مضطربا.

- لا عليك مني.

- سيدي عليك أن تخرج من حزنك الطويل هذا وتنتبه لنفسك.

- دعك مني واذهب لعملك.

- أدعك إلى متى؟

- حتى تعود (جوارح)؟!

- وإذا لم تعد؟

- اغرب عن وجهي.

- لا لن أغرب يا سيدي.

- قلت اغرب واتركني..

- استمع مني الحقيقة سيدي (جوارح) لم تعجب بك يوما؛ ولم تبادلك الشعور، فلماذا أنت حزين على رحيلها هكذا؟

- (سيف) أنت لا تعلم شيئا؟

- وما الذي لا أعلمه؟

- إنها كانت تبادلني نفس الشعور.

- ومن أخبرك بهذا؟

- عيناها.

- هههههه قلت لي عيناها هي لم تنظر إليك ولو مرة واحدة يا سيدي.

- لا بل نظرت عندما أكون وحدي.

- ولمَ لم تفصح لك؟

- لقد كانت تحمل هم فقرها وغنى (صاحب الدار) دائما.
- سيدي لقد كانت تغير مسارها عندما تجدك في طريقها.
- خوفا من الواشين.
- حقّا يا سيدي؟
- نعم.

وقف (فياض) واتجه نحو الباب.

- إلى أين يا سيدي؟
- كما هي العادة لأجلس فوق السور.
- ولكن الوقت متأخر جدا.
- ليكن.
- سآتي معك سيدي.
- حسنا.

صعد فوق السور ولم يرَ سوى جماعات الكلاب، وهي تتقاتل على بقايا من العظم والطعام والفتات الذي كان الحرس يقذفونه إليها.

أضواء القرى قد خفتت وتوقفت الحركة فيها لقد جلسا طوال الليل فوق السور ومضت الأيام، (فياض) كانت لياليه مؤلمة، ها هو يفتح نافذته ليسمع الليل كله يدور في ميازيب الماء مع القطط والكلاب، نحل جسمه وأنهكه المرض وازدادت عزلته وتجنب الناس والحديث معهم.

كانت ليالي (فياض) تزداد ضيقا واضطرابا وحزنا فيمتلئ صدره بالحزن والألم ساعة المساء التي تؤذن بليل موحش يغمر الدروب بظلمته وكآبته، كانت لياليه موحشة تمر ولم يغفل عن ذكر تلك التي أسقمه حبها طيلة

السنة وهو يعاني من الوجد والأسى والحزن ما يعانيه، لقد كان يتمنى دمعه على ضريح ساحرة العيون تلك التي غيابها مر وصعب لهذه الدرجة، لقد كانت عبارات (سيف) المواسية والمخففة له لا تنقطع أبدا.

- سيدي أصبحت لا تنام ولا تأكل أو تشرب رفقا بنفسك.

فرد عليه بكلمات تتردد صاعدة وهابطة في تنهد في أثناء الشهيق والزفير قائلا:

قلبي من طول الغياب ينزفُ

ودمعي من عيناي لن يتوقفُ

فأين أنت وأين ذاك الموعدُ

يا حسرتاه كيف لا أتأسف

لقد قال كلماته تلك مشحونة بمعاني الحزن العميق وأحاسيسه الصادقة ومشاعره سيطر عليها عاطفة الحب الجميل العميق الممتزج بالأسى والحزن الدفين ذلك الحزن الذي غير حياته باختفاء محبوبته.

قال (سيف) وبابتسامة عريضة:

- أصبحت تقول الشعر يا سيدي فليتك قد قلته بوجودها لعل أحداثا كانت ستتغير.

(اجتماع نسوي)

عادت زوجة (صاحب الدار) مع (نبأ) بعد أسبوع من سفرهما إلى المدينة، وبعد أن اطمأنت على صحة والدتها وقد عادت بخبر جديد هو أنها قد طلبت يد ابنة أختها لولدها (فياض) وبشرت (صاحب الدار) بالخبر وأخبرته بأن عليها الذهاب مع (فياض) و(فاروق) لإعلان الخطبة رسميا وتلبيس دبلة الخطوبة، لقد كان موفقا لها، وكذلك أبناؤه وأخبرت (فياض) بالخبر ووجهها يتهلل فرحا لكنه غير الموضوع وانسحب وذهب.

وظل هكذا لأيام فكان الكل يعلم ومن بينهم والدته أنه ليس راغبا بهذا الزواج إلا أنها أصرت وعملت على وضعه تحت الأمر الواقع فذهب وألبست العروس ابنة اختها الدبلة ورافقها (فاروق) وأعلنت الخطبة واتفقت معهم على موعد الزفاف وقد حدداه الاثنين القادم. لقد كان على العريس أن يحضر ليلبس العروس الدبلة بنفسه فهذه هي العادات والتقاليد إلا أن (فاروق) ووالدته قدما أعذارهما الواهية لأهل العروس بأن (فياض) مشغول ببعض الامور أعاقته عن الحضور فعادت إلى العزلة مع (فاروق) حاملة خبر أن موعد الزفاف قد تحدد لا رجعة فيه.

وفور وصولها أخبرت (فياض) فثار غضبه وانزعج كثيرا.. قائلا:

- أمي كيف تتفقين معهم وأنتِ تعلمين أني رافض؟

- ولماذا ترفض يا بني إنها (سلوى) ابنة خالتك ألا تتذكرها؟ كم هي جميلة، إنها تحبك كثيرا!

- ما كان علي فعل هذا إلا لأني أعلم أنكما تتبادلان الحب.

- أمي أنت تكذبين على نفسك أنا لا أحبها!

تغيرت لهجتها لامرأة متوسلة:

- بني لقد تكلمنا لم يعد لنا خيار سوى الإكمال وإلا فخالتك سوف تغضب وتقطع صلتها بنا، وأيضا إنها ستحزن كثيرا وأيضا الناس ماذا تقول عنا فتحنا خبرا وتركنا لماذا لم تعجبنا؟ لماذا؟ هي ابنة خالتك ولا ترضى لها أن يتكلم الناس عنها.

كلماتها تلك وتحولاتها كانت معروفة لديه فكان عليه القبول فرد عليها وبلهجة باردة:

- حاضر أمي سوف أرضيك وأتزوج ابنة خالتي ولتعلمي أنني لست راغبا وإنما وافقت لرغبتك أنتِ فقط.

- يسرني أن تنزل عند رغبتي بني الطائع الجميل.

بعد سنة أقيم عرس كبيرٌ حضره كبار العزل وجميع أصدقاء (صاحب الدار) ظهر في العرس جميع مظاهر البذخ والترف، وصلت العروس بموكب السيارات المتراصة كثيرة العدد مساء الاثنين حين عودة (نبأ) إلى الكوخ مساء بعد عملها الطويل نهارا

- انتظري قليلا..

- نعم سيدتي..ماذا؟

- عليك غدا دعوة جميع نساء العزلة وبالذات الثلاث القرى القريبة (نجد) (خرابة) (دلة) للحضور غدا عصرا لرؤية عروستنا الجميلة.

قالت وبتعجب: حقّا سيدتي؟!!

- نعم كما أخبرتك عليك الذهاب الآن

هذه هي المرة الأولى التي يتم دعوة نساء القرى لحضور زفاف أحد أبناء الدار فهذه المرة ستكون الأولى التي يتعرف فيها نساء القرى على الدار ومن فيها وهن يتشوقن لرؤية داخل الدار من كثرة ما تصفه لهن (نبأ) وهو حلم من أحلام البسطاء قارب أن يتحقق.

ها هي الشمس تبدأ بعملها اليومي بعد أن أفل القمر، وبدأت الحركة تدب في القرى.. استيقظت (نبأ) باكرا فعليها المرور بثلاث القرى المجاورة وإبلاغ النساء بالحضور للزفاف في الدار عصرا ،ثم تذهب إلى الدار فاليوم حافل بالعمل. مرت (نبأ) بالثلاث القرى وتركت خبرا هنا وهناك بأمر الحضور، وكانت تترك نساء القرى في حالة اندهاش كبير أسرعن بأعمالهن اليومية لكي يذهبن إلى الزفاف.

الوقت عصرا.. بدأن يتوافدن إلى الدار كأسراب الطيور يدخلن الساحة فتبدأ عيونهن بالاتساع تدريجيا كلما توغلن في الدار وفي طابق الخدم هناك غرفة واسعة خصصت لمثل هذه الاجتماعات النساء اليوم سوف يجلسن فيها؛ لأنه لا يمكن جلوسهن في طابق (صاحب الدار) فيتسببن باتساخه.. تلك النساء القرويات استقبلتهن (نبأ) وأخبرتهن بأن زوجة (صاحب الدار) والعروسة وكذلك زوجات أبناء (صاحب الدار) سينزلن من طابقهن الخاص الساعة الرابعة..

انصرفت بعد ذلك بقين ينظرن إلى الجدران الملونة والستائر المطرزة بالكريستال ويتحسسنها بأيديهن الخشنة تلك الستائر ذات القماش القطني الناعم مرت ساعات الانتظار كأنها عام..

وها هن نساء الدار ينزلن أخيرا يدخلن الغرفة كسرب الحمام ترتسم على وجوههن ملامح الغرور والكبرياء.. تفوح منهن روائح العطر الفاخر والبخور الجنوبي النادر.. بفساتينهن الطويلة يرفعنها بأيديهن كالأميرات كي لا تعيق مشيهن المختال.. فساتينهن بألوانها الزاهية ويرتدين فنائل قماشها غليظ ألوانها داكنة.. ذات ذراعين شفافة، ويظهر من خلالها نقش الخضاب على سواعدهن ومعاصمهن وكفوفهن المنقوشة بالحناء الأحمر كحمرة الورد على وجوههن مساحيق التجميل المختلفة.. يضعن على رؤوسهن أغطية شفافة قصيرة تغطي الرأس والرقبة فقط.. وشعورهن مسترسلة على ظهورهن، وأناملهن ناعمة منتظمة ولا عوج فيها كالأقلام تملأ أيديهن أساور الذهب، وكذلك صدورهن ممتلئة بعقود الذهب ذات التشكيلات المختلفة..

كان دخولهن منتظما أولهن السيدة (صاحبة الدار) ثم العروسة على يمينها زوجة (فاروق) وفي يسارها زوجة (شاكر) يليهن اثنتان زوجة (عاصم) وزوجة (هلال) وتلحقهن (نبأ) بمسافة..

مررن وجلسن برأس المكان، فالعروسة وزوجة (صاحب الدار) مقاعدهما مرتفعة عن البقية، نساء القرى ينظرن باندهاش كبير.. ونساء الدار ينظرن بتقزز إلى نساء القرى بملابسهن الرثة باهتة الألوان.. الممزقة من أشعة الشمس مضى عليها زمن لا يمتلكن سواها.. ومع كثرة ارتدائهن لتلك الملابس قد نهشت الأشجار والأحجار من أسفلها وأيديهن ذات الشقوق الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى.. وكذلك أقدامهن التي تنبعث منها الروائح الكريهة إثر ارتدائهن المتواصل لتلك الأحذية البلاستيكية التي إذا تعرضت لأشعة الشمس طويلا فإنها تصدر روائح كريهة.

كان نساء القرى سمراوات البشرة نحيلات الجسم شاحبات العيون يشعرن بالخجل من نساء (الدار) نساء القرى قد عرفن العروس من فستانها الأبيض الكبير، لقد كانت جميلة طويلة القامة دائمة الابتسام لها شعر مفروق من المنتصف ينساب في خصلات مجعدة، وأما (صاحبة الدار) فقد عرفنها فهي تلك التي تضع قليلا من المساحيق على وجهها وتحمل القليل من الحلي يبدو عليها الوقار ورزانة السن أما البقية فلم يعرفنهن فها هن يسألن (نبأ) عنهن فهي الوحيدة التي تعرفهن فبدأت (نبأ) تصفهن وبغرور وتباهٍ كونها تعرفهن فقالت:

- تلك التي على اليمين ذات الفستان الأحمر الداكن والشعر الأسود والمجعد التي تضع على رأسها الغطاء الزهري طويلة الأنف هي زوجة الولد الأكبر لصاحب الدار (فاروق).. اسمها (زينب) زوجها متعلم وهو حاليا محامٍ يقضي أغلب أيام الأسبوع في المدينة.

- وتلك التي إلى جوارها ذات الأعين الزرقاء والشعر الأحمر القصير والفستان البنفسجي والغطاء الوردي ذات الأنف المتوسط هي زوجة (هلال) ابن (صاحب الدار) الثالث هو من يهتم بالقات وبتسويقه.

وتوقفت قليلا ثم عاودت الشرح والتعريف والوصف:

- أما تلك التي في جهة الشمال واسعة العينين وصغيرة الفم.. الرشيقة طويلة القامة ذات الشعر الطويل الأسود الحريري والفستان الأصفر والغطاء الوردي المطرز هي زوجة ولد (صاحب الدار) الثاني شاكر وهو مراسل والده إلى أصدقائه ذو ذي اللسان المعسول وهو جميل جدّا.

والتي إلى جوارها تلك الشقراء بشعرها الكثيف الأصفر كبيرة الشفتين حوراء العينين قصيرة القامة متينة الجسم هي زوجة ولد (صاحب الدار) الخامس (عاصم) وهو من يتولى الإشراف على الفلاحين في مزارع الفواكه.

ثم أردفت تقول:

- أما ابنه الرابع (عمرو) فهو في الهند يدرس الطب قيل إنه انتهى، وهو الآن يزاول المهنة هناك في تلك البلاد، قيل بأنه قد تزوج هندية وقد أنجبا طفلين..

(فياض) عريس اليوم عروسته هذه هي ابنه خالته.. قيل إنها تحبه منذ أن كانا طفلين هو لم يحبها يوما ولم يبادرها الشعور وهي تعلم ذلك كان الله في عونها. (فياض) هو ابن (صاحب الدار) السادس، تلك التي إلى جوار العروسة ذات الفستان قليل التطريز ذات اللون الرمادي الهادئ التي تضع على شعرها غطاء ليس شفافا قليلة المساحيق هي زوجة (صاحب الدار).

(هلال) و(فاروق) و(ظافر) زوجاتهم بنات حكام العزل المجاورة أما زوجة (عاصم) فإن والدها صاحب أكبر مزارع العسل يسكن خلف الجبل كان صديقه وبتزويج ابنته لابن (صاحب الدار) ازدادت كمية العسل.

صمتت قليلا ثم قالت:

- إن ملابس نساء (الدار) قد تم طلبها من المدينة إنها باهظة الثمن؛ وكذلك مساحيق التجميل، كانت نساء القرى تسمع إلى (نبأ) وقد تجمدت أجسادهن وشخصت أبصارهن وصغت آذانهن بدهشة كبيرة فإحداهن لم تحسن من جلستها فعنقها معوج يكاد ينكسر ولم تنتبه له، وتلك أخرجت ثديها لترضع طفلها قبل ساعات ونسيت أمره فهو يتدلى فتتقطر قطرات الحليب قطرة بعينه وقطرة على خده.. وأخرى على أنفه يحاول الطفل

الإمساك به وإرجاعه إلى فمه لكن عبثا يحاول فيداه صغيرتان لا يستطيع التحكم بهما بعد، كانت جميع نساء (الدار) يلتزمن الصمت لا يتكلمن حتى ما بينهن، نظراتهن توحي باشمئزازهن من نساء القرية اللاتي حضرن..

كانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقين بهن، كانت بعض نساء (الدار) تمضغ القات والبعض طلبن من (نبأ) إحضار بعض الحلويات ليتناولنها، كانت زوجة (صاحب الدار) تعمدت هذا الحضور وهذا الالتقاء لمرمى وهدف وقصد برأسها تود إيصاله إلى نساء القرية..

هذا الاستعراض يوصل إلى كل نساء القرية بأنهن فلاحات مكانتهن ستظل كما هي ولن يصلن إلى أميرة أو إلى مستواهن في أي يوم.. وإن روايات الفلاحة الفقيرة التي تزوجت الأمير ليست واقعا أو حقيقة!. الفارق يظل كبيرا وشاسعا بين نساء (الدار) وبينهن.. هن مجرد فلاحات قرويات، جاهلات.

خططت لهذه الدعوة لعرس (فياض) خصوصا فهو الذي أحب تلك الراعية القروية وفي النهاية تزوج من طبقة تناسبه وتناسب (الدار) ومن فيها.

رسالتها تلك وصلت فور وصول دعوة الحضور إلى ذهن الفطنات من النساء، جلست نساء (صاحب الدار) مع نساء القرى ساعتين فقط ثم انصرفن.

بعدها اتجهت نساء القرى إلى قراهن وفي طريقهن يصفن (الدار) ونساءه يمدحن واحدة وينقصن من وصف أخرى، يصفن ملابس المدينة ومساحيقها الملونة، كانت المدينة في تصورهن كأنها قارة لم تكتشف بعد لقد كان كل ذلك المديح والوصف.. وأيضا الذم عبارة عن فضفضات بين نساء القرى للترويح عن النفس، أطلقتها نفوسهن وحالتهن البائسة.

(جنية)

مضت سنة على مغادرة (جوارح) ووالدها القرية هربا من (صاحب الدار) ومن جبروته الذي لا ينتهي وها هما اليوم يستقران في (غابة رماح) مع (رماح) وقد تعودا على العيش معه، يعاودهما الحنين إلى قريتهما من حين إلى آخر لكن هاجس العودة ليس بالحسبان ولن يعودا أبدا هكذا قد قررا..

أجواء الغابة ناسبتهما والعيش مع الوحوش كان أهون عليهما من عيشهما مع (صاحب الدار) و(نصر) وأعوانه.

إن جو الغابة ناسبهما كثيرا، وذلك الوحش قد شاركاه حياته وغابته ومكانه وفي إحدى الليالي الممطرة التي استمر فيها المطر الغزير من الثامنة صباحا حتى السابعة مساء، وبدأت تلك القطرات تتقطع ثم توقفت نهائيا.. كانت ليلة مظلمة بردها قارس، حتى الوحوش ظلت مختبئة هذه الليلة ولم تخرج للمطاردة والبحث عن غذاء..

أحضر (رماح) الحطب من الغابة إلى سطح الصخرة كالعادة كل ليلة وأشعل النار وجلس الجميع بالقرب من النار وبدأ الدفء يتسلل إلى أجسادهم..

صمت مطبق على المكان فجأة حط طائر ضخم على غصن (الإثبة) التي كانت تظل تلك الصخرة جناح ذلك الطائر الكبير هزت وحركت جميع الأغصان (للإثبة) حدق الكل عاليا ولم يروا شيئا سوى أن الأغصان تهتز بقوة قليلا ثم ظهر طائر ضخم بني اللون ريشه الجميل يلمع مع أضواء تلك النار

لعله أكبر طائر في تلك الغابة، وهي أول مرة يشاهدونه حتى (رماح) الذي يسكن الغابة منذ زمن لم يشاهده قط قبل الآن..

لقد كان الجميع في حالة اندهاش كبير، كان لهذا الطائر عينان شديدتا السواد براقتان تبدوان وكأنها مكتحلتان كأنها عيون امرأة إنها في غاية الجمال، ريشه متراص في غاية الإتقان والروعة، نظراته كنظرات إنسان، تظهر على هذا الطائر ملامح القوة والنشاط وصغر السن، ظل ذلك الطائر أعلى الشجرة يحدق ببصره ويصوبه نحو (رماح) حتى منتصف الليل ثم اختفى.

سألت (جوارح):

- ما اسم هذا الطائر؟ هل شاهدته من قبل؟

أجابها (رماح):

- لست متأكدا ولكني أظنها (الحدأة) إن لونه وشكله يشبهها، ولكني لم أشاهده من قبل فهذا ضخم جدّا أما (الحدأة) فهي بحجم (الغراب).

- صمت قليلا.. ثم قال: لقد تذكرت لقد رأيت مثله عندما كنت صغيرا فقط.. مرة واحدة.

- هل غادرت هذه الطيور حينها من الغابة ثم عادت؟

- لا.. لم تغادر هي هنا في الغابة.

- في الغابة لكننا لم نشاهدها أبدا..

- وأنت لم ترها إلا عندما كنت صغيرا لمرة واحدة.

- هي ليست طيورا.

كان والد (جوارح) ينصت إلى الحوار وقد أحكم النعاس قبضته على عينه.

- ماذا؟ ليست بالطيور؟

- نعم.. هي من الجن.

- صاح والد (جوارح) بصوته وقد فر منه النعاس: من الجن؟!

- نعم هم يعيشون هنا في الغابة هم سكانها الأصليون، عندما أتت عشيرتنا إلى هنا كانوا فيها.

- ولم لم نرهم على الرغم من حجمهم الكبير والضخم؟

- شكلهم الحقيقي هو كشكل الإنسان إلا أنهم مخيفون يروننا ولا نراهم ويستطيعون أخذ هيئة أي حيوان.

وأردف قائلا:

- أما إذا أرادوا الظهور على الإنسان فإن عليهم أخذ شكل حيوان وهذه المرة كالمرة السابقة ظهر كطائر (الحدأة).

- بانت الدهشة والخوف على وجوههما مما يسمعانه.

- إن الغريب في الأمر أنهم لا يظهرون إلا إذا كان هناك شيءٌ.

- ترى ما هو؟

- شيء ما مثل ماذا؟

- عندما كنت صغيرا كانت الحرب ما زالت قائمة بين عشيرتنا وعشيرة (الجن) فعندما قدمت عشيرتنا إلى الغابة وسكنت فيها أراد الجن إخراجهم منها، لكن عشيرتنا رفضت الخروج والمغادرة وكانت تظهر على أشكال مختلفة كمعزة أو حمار والأغلب كهيئة طائر، وفي أثناء المشاجرة، استمرت الحرب، زمنا طويلا، رضخت في نهايتها، وبقيت عشيرتنا هنا واختفوا هم بعالمهم ولم أدرِ ما الذي أظهر أحدهم هنا.

- ماذا تعني؟

- أعني أنهم لم يظهروا منذ ذلك الوقت.. فما الذي دعاهم للظهور الآن؟

- قد يكونون ظهروا بسبب وجودكم.

- قاطع الوالد: علينا الرحيل؟

- لا ذلك مجرد افتراض فقط..

صمت الكل ثم قالت (جوارح):

- لا أظن أن الأمر متعلق بنا فذلك الطائر ظل محدقا بك طيلة الوقت.

- هذا صحيح قد يكون الأمر متعلقا بي..

- ماذا يريد منك بعد هذه المدة؟

- لا أدري ما علينا سوى الانتظار.

كان طائر (الحدأة) يختفي طيلة النهار، وما إن يسدل الليل ستاره حتى يكون أول الحاضرين يحط على الشجرة ويظل ينظر إلى (رماح) حتى يرحل، كانوا يشعرون بشيء من الخوف منه في بداية الأمر لكن مع كثرة حضوره بدأ ذلك الشعور يختفيز

مضى شهر، وذلك الطائر يأتي بعد الغروب بقليل ويختفي عند منتصف الليل أحس كلا الجانبين بأمان، مضت ليلتان على اختفاء الطائر لم يأت.. أحس (رماح) ومن معه بنقص عند غيابه وتساءلوا عن ذلك الغياب فيما بينهم..

ها هو اليوم الثالث تغرب شمسه وجلس الكل على النار كالعادة كل ليلة وما هي إلا دقائق حتى اهتزت أغصان شجرة (الإثبة) فنظر الكل بلهفة وشوق يظنون أنه ذلك الطائر الذي كان يأتي من قبل لكن المفاجأة هي أنه ظهر طائر

آخر هو ذلك الطائر نفسه شكلا وحجم أيضا إلا أن هذا يبدو عليه الكبر فلونه بني ولكن لا لمعة لريشه وبعض ريشه متكسر؛ وعيناه ليست براقتين يحيطها تجاعيد ومنقاره ليس حادا.. فقد بدا عليه بعض الشقوق؛ وحركته لم تكن بتلك الخفة والرشاقة والنشاط.. فهو بطيء لقد كانت يبدو عليه التقدم في السن؛ علم الكل أن هذا الطائر ليس هو المنتظر، ظل ذلك الطائر يحدق ب(رماح) لكن نظرته تختلف عن نظرت الطائر السابق.. فهذه النظرات هي نظرات حقد.. تظهر فيها شرارة من الغضب استمر ذلك الطائر على حالته تلك دقائق؛ ثم بصق بوجه (رماح) وذهب يحلق عاليا ثم اختفى، اندهش الجميع من ذلك التصرف.. في الصباح نهض الكل ولكن (رماح) لم يستطع الوقوف فقد شلت قدماه، تعجب الجميع ما الذي حل به فجأة.. إنه الآن لا يستطيع الحركة.. ها هم يقدمان له الطعام والشراب.. مضت أيام وهو في حالته تلك مع فشل جميع محاولات (جوارح) ووالدها في علاجه بالأعشاب التي كانا يقومان بالبحث عنها وطحنها؛ ثم مزجها وتدليك قدميه، لم يجدا حلا لعلاجه إنهما حزينان جدّا عليه.

مضى أسبوع وهو على حالته تلك؛ في إحدى الليالي أتى ذلك الطائر العجوز كبير السن ونظر نظراته المعتادة بحقد وكراهية إلى (رماح) وفجأة تكلم ذلك الطائر وقال بصوت حاد كأنه صوت امرأة:

- ألم تمت بعد؟!

ذعر الجميع من هذا الطائر الذي هم على علم سابق أنه جنى في الحقيقة فألجمت ألسنتهم قليلا ثم قال (رماح):

- ومن أنت؟

- أنا أم ذلك الطائر الذي كان يأتي إليك كل ليلة..

- وأين هو؟

- لقد ماتت إنها ابنتي قتلها كبيرنا، كنت أنت السبب؟

- بسببي ماذا عملت لها؟

- لقد وقعت بحبك ومن خالف قانونا وأحب إنسيا يتم قتله!

- وما ذنبي أنا؟! هي من وقعت بحبي أنا لا أعرف شيئا ولم أجبرها على فعل شيء.

- لقد أخذت جزاءها وأنت سوف تلحقها ستشل جميع أعضاء جسدك قريبا وستموت

قال بكل استهتار: وما يدريك أنت يا حمقاء أني سأموت قريبا؟

- لقد بصقت عليك وسيشل جسدك بالكامل وتموت..

- هل مرضي بسبب بصقتك تلك؟!

وبصوت يدل على الانتصار والغلبة..

- نعم هذا جزاؤك أيام قليلة وتنتهي..

صاح بصوته الغليظ: لا لا.. لن أموت بسببك أنتِ.

أخذ عودا مشتعلا ورماها به.. كانت تلك (الحدأة) الجنية غير متوقعة لتلك الرمية فلم تتمكن من الفرار ووقع العود بجناحها اليمين فاحترق.

لم تتماسك (الحدأة) وحاولت الطيران فصدمت بالأغصان بسبب ارتباك حركتها وعدم تركيزها فسقطت فوقعت على النار التي أمامهم حتى أطفأتها بحجمها الضخم وماتت..

أحس (رماح) بالانتصار منها أما (جوارح) ووالدها فلم يستوعبا ما حدث.. طائر يتحدث وهو في الحقيقة جنية.. ذلك الطائر الجميل الذي كان يأتي كل ليلة هي ابنتها الجنية قد وقعت بحب (رماح) وهو إنسي وقد تم قتلها، كانت كل تلك الأشياء غير المنطقية قد حدثت أمامهما.. إنها حقيقة وليس حلما تجمد جسداهما خوفا وشخصت أبصارهما ذعرا..

بدأ الأسبوع الثاني وشل جسد (رماح) بأكمله وهو ما قالته تلك (الجنية) وهذا يعني أنه سيموت قريبا فقد أصبح ممددا لا يتحرك فيه سوى عينيه وجميع تلك الأعشاب التي أحضراها له لم تجد نفعا فشلت كل محاولاتهما في إيجاد دواء له، انتهى الاسبوع وانتهى معه حياة الوحش البشري (رماح)..

(رحلة علاج)

رحل النهار وأقبل الليل وبدأ يلف كل شبر في العزلة يجد هناك أملا وهنا يأسا، هناك خوفا وهنا رجاء.

(فياض) ينزل سلم الدار قادما من غرفته متوجها إلى غرفة (سيف) الذي اعتاد على المبيت بها، فكل محاولات والدته باءت بالفشل؛ وها هي محاولة تزويجه لكي ينسى (جوارح) ويتعافى تفشل هي الأخرى..

كذلك فشلت محاولة تغيير والده من طريقة التعامل معه والتودد إليه.. وتلبية رغباته من قبل إخوانه ومنحه إجازة من العمل.. كلها لم تخرجه من حالته تلك وانتظار من غاب عنه محبوبته (جوارح) لقد مرت سنة وهو ينتظر خبرا عنها ووالدها فلم يجد خبرا ولا أثرًا لهما بأي مكان.. لقد جعله هذا الانتظار بحالة كبيرة من القلق والاضطراب، لقد أصبح وجهه مصفرا كصفرة الزعفران، انهارت صحته النفسية وعجز عن المقاومة، إنه في ريعان شبابه، لقد كان يحاول الصبر والتجلد والإنكار لكن حزنه كان واضحا عليه فعاتبه أهله وعيروه لما أظهره من حزن على غيابها، لقد كان يخفي في قلبه أضعاف ما شاهدوه.

التقى بجدته على السلم وقالت له:

- بني الجميل لا تحزن هكذا، ستعود، ستعود..

كلماتها تلك جعلته يوقظ بصره السارح في الأرض ويوجهه إليها.. كانت هذه هي المرة الأولى التي تقول الجدة فيها جملة كاملة ودون توقف؛ وتقول

كلاما في وقته فكل ما كانت تتحدث عنه الجدة أشياء قد حدثت معها في أثناء شبابها، على الرغم من أنها قد أصبحت خرفة ولم تقل منذ سنوات جملة صحيحة وواقعية.. وهي لم تعرف ما الذي يدور في الدار، إنها لا تقول سوى غنائها عندما كانت ترعى الأغنام.. وقت تنادي بقرتها.. وحين آخر تسأل عن جارتها وصديقاتها اللواتي كن قد توفين في ذلك الوقت ذاكرتها التي لم تواكب العصر لا تعرض سوى أشياء قد حدثت منذ زمن جعلتهم يسمونها الخرفة لكن عبارتها تلك بعثت فيه روح الأمل من جديد، ونثرت على وجهه قليلا من ملامح الفرح واصل طريقه إلى (سيف).. وعندما رآه (سيف) سر كثيرا فهو يبتسم وقال بفرح:

- سيدي ما أجملك! تبتسم؟!..

- ستعود..

- من ستعود سيدي؟

- (جوارح)... ستعود..

أصيب (سيف) بخيبة أمل كبيرة وأحس بالأسى.. فقد تبادر إلى ذهنه بأن سيده قد جن؛ فقال وأحشاؤه تتقطع حسرة:

- نعم ستعود يا سيدي.

حياتهما الطويلة التي قضياها معا جعلت كل واحدٍ منهما يفهم الآخر، وذلك ما جعل (فياض) يقول:

- اطمئن لم أجن بعد (يا سيف)، جدتي هي من قالت بأنها ستعود.

ضحك (سيف) وقال:

- جدتك من قالت ذلك؟! هههههه

- نعم ولماذا الضحك؟

- هههههه اعذرني سيدي لا أستطيع التوقف! هههههههههه.

- لماذا تضحك؟

- أضحك على ذاكرة جدتك التي جعلت كلمة ستعود ضمن ترتيب ما ستقوله اليوم، وأيضا تقولها لك..

- ألم تسمع بمقولة (خذ الحكمة من أفواه المجانين)؟!

- قد سمعت بها وهل علينا اليقين بها؟

- نعم فالغريق يتمسك بقشة!

- سيدي لم تقطع الأمل بعودتها يوما.. لكن سيدي أرجوك انتبه لنفسك فحالتك تتدهور يوما بعد يوم.

- ليتني أستطيع لقد غرقت وانتهى الأمر.

كان (سيف) يذهب إلى (صاحب الدار) مرتجيا له أن يسمح له بأخذ (فياض) إلى المدينة محاولا إقناعه بأنه من المحتمل إذا ابتعد عن العزلة أن تتحسن حالته، كان (صاحب الدار) يوبخه كل مرة يذهب إليه.. ولكن لم يتوقف وحاول كثيرًا حتى أخذ الإذن منه ولمدة شهر فقط، كان أمر أخذه إلى المدينة وموافقة (صاحب الدار) أمرا صعبا ولكن إقناع (فياض) أصعب بكثير فقد استمر يحاول معه كثيرا وكانت مكانة (سيف) الكبيرة عند (فياض) ومعزته الخاصة ومحبته الكبيرة له هي من ساعدته على إقناعه بالسفر، وقد اقترح (سيف) على (فياض) بأخذ زوجته معه لتزور أهلها هناك وسافرت معهما وما إن وصلت عند أهلها حتى رفضت العودة وطلبت الطلاق أيضا..

(فياض) بحالته هذه طلقها ثلاثا ولم يبال. لقد حاول (سيف) جاهدا منعه لكنه لم يستطع.. رحل (فياض) من العزلة لكن ذكرياته سافرت معه وظلت أمام عينيه.. بقاؤه في المدينة خفف من حدة توتره وهناك في المدينة أصبح محبا للعمل وأراد العودة إلى العزلة ليعمل.. لكنه لم ينس محبوبته فقد كان يمضي ليله ساهرا.. يعاود أسف الفراق.. يناجي ليله وحيدا رق لحاله النجم وكاد القمر أن يبكي متعطفا معه لطول ما بات يناجيه، كانت موافقة والده على السفر تخبئ فكرة أنه إذا ما ابتعد ينسى (جوارح) وخصوصا أن زوجته معه مصدقين (قاعدة أنه من ابتعد عن مكان به ألم ينساه ويشفى) لكن ذلك كان عبثا، بل ازداد ذكره لها وطلق زوجته، كان (سيف) يلاحظ تحسن حالته ورغبته في العمل والحديث والأكل والشرب لقد تغير عن السابق.. ولقد كان يلاحظ أيضا بقاءه على ذكرى حب (جوارح) وعدم نسيانه لها وأدرك بأن سيده حبيب مخلص ووفي لا يستطيع أحد إجباره على نسيان شيء.

(أضواء التطور)

في ليلة مظلمة وهادئة يجلس (صاحب الدار) في زاوية (المنظرة) يستمع إلى المذياع الذي لا يرسل إلا صوتا كصوت المحتضر، يجلس جلسته المعتادة لقد أصبح يشكو من صداع مزمن في الأيام الأخيرة فأخبار الدولة عموما وأخبار المحافظة خصوصا لا تسر.. وأيضا تحركات (محافظ) المحافظة الجديد وزيارته للعزل المجاورة ووضعها تحت مجهر المراقبة والقيام بتطويرها زاد من حدة قلقه فهو متوقع زيارة (المحافظ) له في أي وقت قاصدا له دون سواه ها هو الليلة يتناول أدوية مختلفة القوة لتخفيف الصداع إلا أنها لم تأت بنتيجة، حتى النعناع الذي كان يدقه ويضعه على رأسه ويخفف الألم قليلا لم يعد ينفع في التخفيف قليلا هذه الليلة.

أتى (فاروق) ودخل (المنظرة) سلم على والده سلاما حارا بعد غياب طويل في المدينة امتدت الى ثلاثة أشهر ولم يكن يطيل الغياب هكذا.. لقد عاد بأخبار غير سارة كما هي العادة.. فقد أصبح كغراب الشؤم لا يأتي بفرح.. أخبر والده بأن (المحافظ) محب التطور سيزور العزلة بعد ثلاثة أيام وفي زيارته هذه سيتم وضع حجر الأساس لعدة مشاريع خدمية للعزلة.. ومن الطبيعي مصاحبة المصورين (للمحافظ) وعرض ما قام به على التلفزيون لتظهر العزلة على العالم زاد اضطرابه وقلقه. على الرغم من توقعه لهذا الخبر منذ فترة..

كان عليهم تجهيز وليمة كبيرة لهذا (المحافظ) وقد كانت هذه الوليمة هي الورقة الأخيرة التي يلعب بها (صاحب الدار) وينوي أن يكسب (المحافظ) بها، وأصدر الأمر بتجهيز هذه الوليمة، لكن (المحافظ) عندما تكلم وأعلن عن

زيارته لعزلة (ردهان)، تعمد تحديد الزمن لأنه على يقين من أن الخبر سيصل إلى العزلة، وأنه سيزور العزلة بعد ثلاثة أيام، إلا أنه تحرك اليوم التالي لتكون زيارته مفاجئة لشيء في نفسه..

رافقه في زيارته مجموعة من الصحفيين والمصورين ونائبه ومساعده.. ومراسلون لعدة قنوات تلفزيونية محلية وخارجية ليصل فجأة إلى العزلة وفور وصوله وضع حجر الأساس لمدرسة ومستشفى، وكذلك وضع حجر الأساس لمشروع زفلتة الطريق المؤدية إلى المدينة ليتحرك بعدها إلى الدار، ويقصد الطابق السفلي للدار خصوصا، فالطابق الغامض اليوم سيعرف ما يوجد بداخله.. لقد كان يعرف الطابق ويود معرفة ما بداخله منذ أن دخل العزلة متخفيا ها هو اليوم سيفتحه لقد كان عدد المرافقين له كثيرا ولعله قد توقع حصول شيء من المواجهة؛ لذلك أخذ كل التدابير والاحتياطات ثم فتح بوابة الطابق السفلي للدار.. طابق الغموض.. ودخل إليه بنفسه..

فتح أبوابا مغلقة كثيرة كانت هي سجون القمم.. ومن بين أولئك السجناء (عبد الله) الذي كان خطيب وإمام جامع الدار، كان (المحافظ) يعرفه لأنه أشعل ثورة ضد حكم (صاحب الدار) الاستبدادي الجائر كان مصيره أن يرمى به في السجن.. لقد عرفه (المحافظ) فور رؤيته له وأخرج كل السجناء إلى الخارج كل هذه التحركات والأعمال كانت على مرأى ومسمع (صاحب الدار) وأبنائه ولم يستطع المواجهة لأنه فاجأهم بزيارته تلك؛ ولأنه هو الحكومة نفسها ولا يستطيع التصرف لمنعه أو إيقافه.

كان (صاحب الدار) ينظر إلى المحافظ وأعصابه تحترق من شدة الغيظ.. فهذه أول مرة يغتاظ لهذه الدرجة.. أما السجناء الذين تم إخراجهم ومن ثم

تصويرهم مباشرة فقد كانوا نحيلين جدا. يسعلون ولا يتوقفون فغرفهم كانت ضيقة.. لا يوجد بها نوافذ فكان التراب والغبار المتطاير يعلق في أنوفهم ليتوجه إلى أحشائهم الداخلية..

خرج هؤلاء السجناء بعد زمن طويل من السجن تمكن منهم الضجر واليأس من الخروج يوما، وأطلقوا زفرات الموت وها هم اليوم يخرجون ليروا نور الشمس من جديد، وفي ذلك اليوم تم إلغاء اسم (عزلة) لمساحتها الكبيرة وقد أعلنها المحافظ (ناحية) تشمل عزلتين كان (المحافظ) الجديد هذا قد وضع مخططا محكما وها هو يمشي وفقه..

ومما تم التخطيط له هو العودة إلى المحافظة باصطحاب (صاحب الدار) وأن يفتح طابق الغموض ليعرف ما بداخله.. أمر يستدعي القبض عليه وإدانته، وفعلا تم القبض عليه بتهمة سجن المواطنين وتعذيبهم لتلحق التهم واحدة تلو الأخرى..

تم القبض أيضا على (نصر) الذراع اليمين لـ(صاحب الدار) وسيفه الضارب بعد الثراء والرياسة والخير الكثير تولت عنه الدنيا.. وأخذت منه كل ما وهبته له يوما فذاق مرارة الهزيمة وذل الأسر وجرد من أمواله وألقابه ودخل السجن في حكم مؤبد.

الدار تلك التي كانت تمتلئ بالخدم والحشم والأبناء والنساء أصبحت خاوية على عروشها فأبناء (صاحب الدار) قد ذهبوا إلى المدينة واختفت أخبارهم، (نصر) تم إصدار حكم بإعدامه لارتكابه الكثير من جرائم القتل، وأشرقت شمس الحرية لتملأ أشعتها كل شبر في الناحية.. ليحيا الشعب بعد الآلام والمعاناة التي لقيها في ظل ذلك الحكم المستبد فانطلق المزارع نشيطا

ومرحا يكد ويتعب ليذهب بالمحاصيل إلى بيته له ولأسرته، وليس إلى المخازن، يجمع بيض دجاجته ليتناولها لا لكي يرسلها إلى مطبخ الدار.. بعد ليل حالك بزغ الفجر وأشرقت الشمس بعد الغروب.. ظهر ضياء الفجر رغم ظلمة الليل.

سبعة أشهر مرت على زيارة (المحافظ) للعزلة وإعلانها (ناحية) تم زفلتة الطريق التي تصل الناحية بالمدينة خلال شهر واحد، وبدأ العمل على قدم وساق في بناء المدرسة لتنتهي وتصبح جاهزة خلال سنة، وقارب المستشفى على الانتهاء وتم افتتاح المدرسة من ثم توظيف المدرسين فيها كان أولهم مدرسا شابا ذا شارب أنيق ونظارات تبدو خلفها عيون شابه حالمة وقوية واثقة من نفسها اكتمل المدرسون وبدأ التسجيل فسجل عدد كبير من الطلبة لكنهم لم يلتزموا بقوانين الدراسة فكان الطالب منهم يذهب ليدرس يجلس وقتا قصيرا ثم يذهب ليرعى أو ليعمل في الحقل غير مبال أو مهتم بعقوبة المدرسة مقتنعا بأن ذهابه لرعي أغنامه سبب كاف لخروجه من المدرسة وعدم إكماله لليوم الدراسي..

عانى المدرسون كثيرا في بادئ الأمر في أول سنة دراسية فهؤلاء الطلبة يدخلون ويخرجون من المدرسة طيلة اليوم الدراسي ولم يرتدِ أحدهم الزي المدرسي يوميا يرتديه يوما ثم يتركه بقية الأسبوع، كذلك يتعرض المدرسون للسب والشتم في بعض الأوقات يجتمع الطلاب لضرب مدرس لقد كانت معاناتهم كبيرة جدّا فما كان عليهم سوى التحمل والصبر مضت السنوات وتعلم الطلاب وعرفوا أخطاءهم وصححوها.

لقد عملت أضواء التطور تلك على إنقاذ أهالي العزلة من عيشة البؤس والحرمان ومن التخلف المميت الفضل يعود في هذا التطور بعد الله ﷻ إلى

همة وعزيمة (المحافظ) الجديد وضميره الحي، فقد احترم مهنته وقدرها، لقد أصبح لقبه محب التطور لقد أطلقه عليه (نصر) مضت فترة وتم إيصال مشروعي الماء والكهرباء ذهب التخلف وأتى التعليم وها هم الأطفال يرددون نشيدا سمعوه في التلفاز:

أمسكت بالقلم.. ورسمت مدرستي..
ورسمت داخلها حلمي وأمنيتي

لقد رددها الكل كما رددوا ذلك النشيد الوطني الجميل:
رددي أيتها الدنيا نشيدي.... رددیه وأعيدي وأعيدي.

لقد ردده رعاة الأغنام على قمم الجبال يرددونه بأحاسيس ومشاعر وطنية فياضة.. أطفال العزلة خرجوا من جهلهم اليوم ينشدون ويغنون بفرحة كبيرة ومشاعر تحمل في طياتها آمالهم وأحلامهم العريضة، وها هو الفصل الثالث في الدور الثاني يرن بأصوات طلبة الصف الخامس.
كتابي يا كتابي.. أنت لي خير الصحابِ.

ها هي سماء الناحية تمتلأ بالأوراق الممتلئة بالحب تأخذها الرياح معلنة انتصارا طال انتظاره.. قد وصل ها هو الفجر يلوح في الأفق على قرية جديدة مبرأة من الشقاء تنعم بالخير والجمال والسلام.

(حنين وعودة)

مضت سنتان على (فياض) وهو في المدينة للعلاج، ورغم الأحداث التي حدثت مؤخرا في العزلة وانهيار مملكة حكمهم إلا أنه يعود كانت جميع أخبار العزلة وما حدث فيها تصل إليه أولا بأول فكان يبدو عليه الرضا والتوقع لما حدث، أمضى (فياض) في المدينة في بيت جده بالتحديد أربعة أشهر لينتقل بعدها إلى الجنوب إلى حيث يوجد البحر، لقد كانت هذه الرحلات هي من تخطيط (سيف).. أملا منها بشفاء سيده، أخذه البحر لعل هواء البحر يزيل سقمه ويهدئ أعصابه لكن دون جدوى فجو المدن وهواؤها والبحر لم يحسنوا من حالته فأدرك (سيف) أن إخراج سيده من القرية وانتقاله بين المدن لا فائدة منه فقد ازدادت حالته سوءا وتملكه الأسى والحزن والوجد والالتياع لفراق (جوارح).. أما اليوم وبعده عن القرية وأهله وما حل بهم من تشتت أيقظ الألم في روحه وجدد أحزانه.. فكان تصرف (سيف) التالي هو إخبار سيده برجوعهم إلى العزلة التي أصبحت (ناحية) ولم تشرق شمس صبح اليوم التالي إلا وقد أصبحا قريبين من القرية وكلما ازدادا اقترابا كان (فياض) يجهد ذاكرته في محاولة مضنية لعلها تعود إليه بعض ملامح (جوارح) التي اختزنها عقله عند آخر لقاء..

لقد كان شوقه يسابق اندفاع السيارة الجنوني ليصلا أخيرا إلى (الدار) وقفت السيارة أمام بوابة الدار.. يمشي في ساحة الدار يسترجع كيف كان الضجيج يملأ هذه الدار.. اليوم أصبحت خاوية ومقفرة لقد حزن لذلك كثيرا

على ضياع ذلك الدار ومن سكنوه. كان (سيف) يقف إلى جواره لقد كان مواسيا له في كل المواقف والأوقات.. أمسك بيده ودخلا الدار وجلسا في غرفة (سيف) كما هي العادة، ثم توجه (سيف) إلى أهله ليراهم بعد غيابه الطويل فكان كل من يلتقي به يسأله عن (فياض) وكيف أصبحت حالته؟ لقد كان يقف مع أهالي العزلة ضد حكم والده ويواسيهم ويرفق بهم فأصبح مواطنا منهم، لم يحمل له أحد من أهل القرية الحقد أبدا لقد رحبوا به بينهم، لقد كانت تصرفاتهم الظاهرية والباطنية توحي بأنه واحد منهم وليس ابن ذلك الطاغية.

(لقاء)

بعد مغادرة (جوارح) ووالدها القرية إلى المجهول ولقائهم بذلك الوحش البشري الذي يمتلك من الإنسانية ما لا يمتلكه (صاحب الدار) وأعوانه، فقد وجدا الحياة آمنة مع (رماح) ومستقرة في غابة تحوي أصناف الوحوش الضالة، انتهت حياة (رماح) ليترك فجوة كبيرة في قلب (جوارح) ووالدها لتسترجع ذاكرتهما سجل الافتقاد لديهما، عادت بهما الذاكرة إلى فقد (رحيل)، ثم أمها، ثم خروجهما من قريتهما كرها..

رحل (رماح) ليتركهما يعانيان الوحشة وغربة المكان لقد كان وحشا بشكل إنسان رائع في معاملته وتصرفه.. عاد إليهما ألم غربتهما وكل ما يعانيان من شوق مضنٍ وفراق أجبرا عليه، وابتعاد قسري. الليل ساكن وموحش في الغابة بعد رحيل زعيمها.. ها هو الليل يتفنن في استعراض الأهوال والمخاوف المرعبة يسمعان هنا وهناك حيوانات تندفع فجأة وكأنها قد علمت بموت زعيم الغابة تعوي عواء شديدا وعنيفا، وهناك جماعات تطارد أخرى وتشتبك معها في معارك ضارية، وخروجها من مخابئها بحثا عن الغذاء في دياجير الظلام لقد أصبحا يسمعانها ويخافان منها على عكس السابق عند وجود (رماح).

إنهما يمسيان ليلهما خائفين متضجرين يشكوان طول مدة الغياب، فقد بلغ بهما الشوق منتهاه فقررا فجأة العودة وتحمل النتائج.

لقد كان والد (جوارح) متخذا هذا القرار فور وفاة (رماح) لقد فكر في أنه قد تقدم به السن وسوف يموت وتبقى (جوارح) وحيدة في الغابة وستأكلها الوحوش، ومن المحتمل ظهور الجن ومطاردتهما وإخراجهما من الغابة، فهو موطنهم.

تجهزا وأخذو أغراضهم وغادرا الغابة عائدين إلى القرية وقلوبهما ترتجف خوفا فظهورهما فجأة كما اختفيا فجأة يسبب لهما مشاكل كثيرة مع (صاحب الدار) وأعوانه، ولم يكونا في ذلك الوقت على علم بما حل في العزلة.. تجاوزا حدود الغابة.. ها هما ينظران إلى القرية من جانبي التلة المجاورة للغابة لقد كانا مصدومين مما يريان.. فالعزلة تملؤها السيارات.. هناك طريق أزفلتي.. لم تعد توجد معالم أي كوخ أو أثر.. لا يوجد سوى مبان ضخمة حجرية وأعمدة كهرباء تتوزع هنا وهناك على جانبي الطريق الأزفلتي.. لم يصدقا ما رأياه أهذه هي العزلة؟، وتلك هي قريتهم التي تركاها منذ زمن؟ هل ناما في الغابة كما نام أصحاب الكهف.. ليصحوا بعد زمن وقد تغير كل شيء؟

عادا لينظرا خلفهما إلى الغابة ليتأكدا أن تلك هي قريتهما نعم.. إنها هي فذاك (الدار) لا يزال موجودا إن النسيم والهواء هو هواء قريتهما لكن يخالطه شيء من دخان السيارات.. عليهما الإسراع إلى كوخهما ليتأكدا وفور وصولهما وجدهما جيرانهما واستقبلوهما بدموع فرح غزيرة صادقة: فقد فقدوا الأمل في عودتهما منذ زمن، لكنهما يرجعان مرة أخرى، ها هي (رثاء) تدخل صديقتها (جوارح) إلى داخل منزلهما ذي الطابقين وتعطيهما الماء وتسرع لتحكي لها قصة الماضي المرير وآلامه القاسية، وتحقق حلم التحرر وإشراق شمس الحرية والعدل كانت تحكي لها وعيونها تمتلأ بدموع الفرح، لرجوعهما

من جديد بعد زمن طويل، الحاج (محمد) والد (جوارح) في الطابق العلوي يسرع إليه الجيران يسلمون عليه، حامدين الله على سلامته يسردون له قصة حلم انتظروه طويلا فتحقق رحل حكم الطاغية الظالم ورحل الطاغية، مضى أسبوع على رجوعهما.

(فياض) جلس أمام منزل (سيف) في المقعد المجاور للبوابة فهو يعيش مع (سيف) وأسرته هو لم يعد يطيق النظر إلى (الدار) والعيش فيه بعد الأحداث التي جرت.. فقد تشتت الشمل.. وتفرق الأهل وبقي وحيدا لقد رحل الجميع مخلفين وراءهم (الدار) خاوية فذهب وعاش مع (سيف) وأسرته.. إن معاملته الجيدة مع أهل القرية والوقوف إلى جانبهم في أثناء ظلم والده جعل له رصيدا من الاحترام والتقدير يستفيد منه الآن..

لا يزال (فياض) يحمل في أعماقه أملا في لقاء جميل يجمعه مع (جوارح) يصبر ويتجلد فغيابها لم يغير قلبه، ولم ينل من وفائه.. وإن كان من شأن البعد أن يغير القلوب ويجمد العواطف إلا أنه ما مالت عواطفه لغيرها.. ولا تعلقت آماله بسواها.. يجلس على ذلك المقعد محدقا في القمر ويتمنى أن يحمل القمر تحيته وسلامه إليها.. مترجيا أن ترد على تحيته فتكون سببا لبث الحياة فيه من جديد.

ها هو (سيف) ينزل من أعلى المبنى مسرعا يصيح وينادي:

- (فياض) (فياض)..(فياض)..(فياض)

وقف (فياض) خائفا:

- ما بك؟ ماذا هناك؟

يرد عليه (سيف) وعيونه تلمع بدخلها دموع:

- لقد عادت يا صاحبي عاااااااادت.

- من هي؟

- (جوارح) (جوارح) لقد قالت لي أمي بأنها عادت منذ أيام.

تغير وجهه وعادت ضحكته وصاح بأعلى صوته:

- حمدا لله..

ثم قال بلهفة تظهر في عيونه وبشوق يبدو في صوته:

- وأين هي الآن؟

في منزل صديقتها (رثاء)..

أخيرا تحقق حلم ذلك الحزين، فتحرك مع (سيف) وطلب يدها من والدها لقد طلبت فترة من الزمن للتفكير في الأمر، ثم أرسلت موافقتها وبادلته الحب وأقيم عرس كبير فرح وسر به كل شخص في القرية ففي كل عين يموج دمع الفرح والابتهاج ولكل مفارق خلٌّ يعود.

تمت